تَسْكِيْنُ اللّهْف بِتَفْسِيْرِ سُوْرَةِ الْكَهْف

تأليف
علي بن سالم بن يعقوب باوزير
غفر الله له ولوالديه

من منشورات المركز العلمي والدعوي . حضرموت . غيل باوزير . معيان الشيخ
منشوراتنا تطلب من مكتبة القدس . غيل باوزير

(تَسْكِيْنُ اللَّهْفْ بِتَفْسِيْرِ سُوْرَةِ الْكَهْفْ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن هذه السورة هي (**سورة الكهف**) وهي من السور المكية، سميت بذلك لاشتمالها على (**قصة أصحاب الكهف**)، الجامعة لفوائد الإيمان بالله تعالى، وثمار العمل الصالح، من الأمن الكامل عن الأعداء، والاستغناء الكلي عن الأشياء، والكرامات العجيبة. والأحوال الغريبة، وتضمنت أيضا جملة أخرى من القصص: كقصة صاحب الجنتين، وقصة آدم وإبليس، وقصة موسى مع الخضر، وقصة ذي القرنين، وما تخلل ذلك من توجيهات وإنذارات، وحكم وآيات، وبيان حقيقة الدنيا، وتقرير التوحيد والمعاد، وإثبات الجزاء والحساب.

(بعض ما جاء في فضلها)

روى الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قرأ رجل (الكهف)، وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: (اقرأ فلانُ ، فإنها السكينة، تنزلت عند القرآن، أو تنزّلت للقرآن)، وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن الحضير رضي الله عنه.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِم من الدجال) رواه مسلم.

وفي لفظ: (من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين) رواه الحاكم والبيهقي. (صحيح الجامع).

وفي حديث: (من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له النور ما بينه وبين البيت العتيق). رواه البيهقي في " شعب الإيمان" (صحيح الجامع).

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

افتتح الله جل وعلا هذه السورة بالحمد، وكثيرا ما تفتتح أو تختتم سور القرآن الكريم بالحمد، إشارة إلى أنه سبحانه المحمود على كل حال، كما قال تعالى: ﴿ وهو الله لا إله إلا هو ، له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ ، وتعليما للعباد أدب افتتاح كل أمر ذي بال واختتامه ، وذلك بالثناء على الله تعالى بأوصاف الكمال ، ونعوت الجلال ، وكمال ذاته المقدسة ، وصفاته المنزهة ، على نعمة العظيمة ، ومننه الجسيمة ، ولهذا قال تعالى أول سورة الفاتحة : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، وأول الأنعام : ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ ، وأول فاطر : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ ، وأول سبأ : ﴿ الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾ . وقال ـ سبحانه ـ آخر الإسراء : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا ﴾ ، وآخر النمل : ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون ﴾، وآخر الزمر : ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم، وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .

فقوله تعالى هنا : ﴿ الحمد لله ﴾ ، الحمد هو الوصف بالكمال محبة وتعظيما ، فإذا قيل : حمِدَ محمَّدٌ ربَّه ، فالمعنى : وصف محمدٌ ربَّه بأوصاف الكمال والجلال ، محبة له وتعظيما ، فإذا كُرّر هذا الوصف صار ثناءً ، كما ورد في الحديث القدسي : (قسمت الصلاة ـ أي الفاتحة ـ بيني وبين عبدي نصفين ، فإذا قال عبدي : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدني عبدي ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله : أثنى علي عبدي ...) الحديث رواه مسلم، وإذا تجرد الوصف بالكمال عن المحبة والتعظيم صار مدحا لا حمدا .

فالله جل وعلا له الحمد المطلق ، في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، لا نقص في ذلك بوجه من الوجوه ، كما قال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ ، أي التي بلغت الغاية في الحسن والجمال ، والكمال والجلال ، وقال : ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ أي له سبحانه الوصف الأكمل ، الذي لا نقص فيه ولا خلل ، وهو ـ سبحانه ـ المحمود على كل حال ، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أتاه الأمر يسره قال : (الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإذا أتاه أمر يكرهه قال : الحمد لله على كل حال). رواه ابن السني والحاكم (صحيح الجامع).

و(ال) : في الحمد للاستغراق والشمول ، أي جميع أوصاف الكمال والمحبة والتعظيم مختصة ومستحقة ﴿ لله ﴾ جل وعلا .

و(الله) : أصلها الإله ، حذفت الهمزة تخفيفا لكثرة الاستعمال ، وأدغمت اللام في اللام ، ووزن (إلَه) فِعال ، وهو مصدر المراد به هنا اسم المفعول ، إي مألوه ، فهو معبود ، كغراس بمعنى مغروس ، وكتاب بمعنى مكتوب ، و(إله) يطلق على كل معبود بحق أو بباطل ، كما قال تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾، و(الله) : علم على المعبود بحق ، رب العالمين ، وخالق الخلق أجمعين ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾ .

ومن ذلك كلمة التوحيد : (لا إله إلا الله) ، أي لا معبود حق إلا الله جل وعلا ، وما دونه من الآلهة فكلها باطلة ، وتكون يوم القيامة ضدا على عابديها .

ثم وصف نفسه ـ تعالى ـ بقوله : ﴿ الذي أنزل على عبده ﴾ أي محمد ﷺ ، وصفه تعالى بالعبودية لأنه بلغ كمالها ، ولهذا جاء في الصحيحين أنه ﷺ (كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه) ، ولما قالت له عائشة رضي الله عنها : أتفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال لها : (أفلا أكون عبدا شكورا ؟) .
والعبودية هي أشرف الأوصاف ، كما قال الشاعر في محبوبته :

لا تدعني إلا بيا عبدها ❁❁❁ فإنه أشرف أسمائيا

والعبودية لازمة لكل أحد ، فمن فر من عبودية الله تعالى وقع في عبودية غيره ولابد ، شاء أم أبى ، كما قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في " نونيته " :   هربوا من الرق الذي خُلقوا له ❁❁❁ فبُلوا برق النفس والشيطان
ومصداق ذلك من كتاب الله قوله تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ﴾.
هذا وقد وصف الله تعالى نبيه ﷺ بالعبودية في أشرف المقامات، فههنا في مقام إنزال أعظم كتاب عليه ، وهو كقوله تعالى : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ ، ومثله في مقام التحدي بالقرآن ، قال تعالى : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ ، وكذا في مقام الدعوة إلى توحيده ، قال تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ ، ومثله في مقام الإسراء حيث قال جل وعلا : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾ .
فهو عبد لله جل وعلا ، وكفى بذلك شرفا له ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، فإن تحقيق هذا الوصف ليس بالأمر الهين ، وليس له من صفات الربوبية ، ولا الألوهية من شيء ، فهو عبد لا يعبد ، ورسول لا يكذب ، بأبي هو وأمي ﷺ . هذا وقد ضلت فيه ـ ﷺ ـ طائفتان ، أهل الغلو وأهل الجفاء ، فطائفة غلت فيه حتى نزلته منزلة الرب الذي يدعى ويستغاث به في النوازل والكروب ، وأضفت إليه بعض صفات علام الغيوب حتى قال قائلهم :

وإن من جوده الدنيا وضرتَها ❁❁❁ ومن علومه علم اللوح والقلم

وطائفة جفته ، ونقصت من قدره ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فلم ترفع رأسا لمحبته ، ولم تبال بمتابعته ﴿ وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .
وفي إضافة العبد إليه ـ سبحانه وتعالى ـ مزيد تعظيم وتفخيم وتشريف له ﷺ ، كالإضافة في قوله تعالى: ﴿ ومن أظلم مِمَّن منع مساجد الله ﴾ ، وقوله : ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ .
ولما كان الإنزال لا يكون إلا من علو ، دل ذلك على علو الله جل وعلا العلو المطلق : علو الذات والقدر والقهر ، ولا خلاف في علو قدره وقهره ، ولكن خالف بعض أهل البدع في علو ذاته جل وعلا ، وقد دل على علو ذاته المقدسة الأدلة الخمسة : الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح ـ أهل السنة والجماعة ـ ، وكذا العقل والفطرة ، وقد بسطنا القول في ذلك في مناسبات كثيرة سابقة ، منها في آخر " تفسير آية الكرسي " .
ولم يبين هنا محل الإنزال من عبده ، وقد بينه في موضع آخر وهو قلبه ﷺ كما قال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذِرين بلسان عربي مبين ﴾ .
و ﴿ الكتاب ﴾ المراد به هنا القرآن الكريم ، وقد يراد به غيره كما في قوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ أي التوراة والإنجيل ، وهو مصدر على وزن (فِعال) والمراد به اسم المفعول أي مكتوب ، سمي بذلك لأنه مكتوب في المصاحف التي بأيدي الناس ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة ، وفي اللوح المحفوظ ، كما قال تعالى : ﴿ في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾، وهو أيضا مذكور في الكتب السابقة ، كما قال تعالى: ﴿ وإنه لفي زبر الأولين ﴾ .
وأصل (الكتْبِ) الجمع والضم ، وصف بذلك لجمعه السور والآيات .
و(ال) : في الكتاب للعهد ، أي الكتاب الكامل الغني عن الوصف بالكمال، المعروف بذلك من بين سائر الكتب ، ألا وهو (القرآن الكريم) فإنه أشرفها وأعظمها .
ثم وصف ـ سبحانه ـ هذا القرآن بقوله : ﴿ ولم يجعل له عوجا ﴾ العِوج الانحراف والميل عن الاستقامة، و(العِوَج) بكسر العين يكون في المعاني ، كما أن (العَوَج) بفتحها يكون في الأعيان ، يقال : في رأيه عِوج ، وفي عصاه عَوَج .
فهذا الكتاب لا خلل في لفظه ولا في معناه ، ولا فيما يدعو إليه لا كثيرا ولا قليلاً، لأن (عوجا) نكرة في سياق النفي فتعم جميع أنواع العوج، ونظيرها قوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾، وقوله تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾ أي صدقا في الأخبار ، وعدلا في الأحكام .
فهو لا يخبر إلا بأجل الإخبارات ، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيمانا ، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان ، لما في ذلك من تزكية النفوس ، وتطهيرها وتكميلها ، فكتاب موصوف بما ذكر لهو حقيق وجدير بأن يحمد نفسه ـ تعالى ـ على إنزاله على عبده ﷺ لهداية عباده .
وبعد أن بين كماله في نفسه ، بين تكميله لغيره ، فنفعه ليس قاصرا ، بل متعدٍ ، ولهذا قال : ﴿ قَيِّما ﴾ والقيِّم : صيغة مبالغة من قائم ، والمراد به القائم بمصالح غيره ، لأن الناس بمنزلة الأطفال ، يحتاجون لمن يقوم بمصالحهم ، وقد جعل الله القرآن الكريم كفيلا بذلك ، قائما بمصالح العباد الدينية والدنيوية ، فلا يحتاجون معه إلى غيره ، ولهذا جعله تبيانا لكل شيء يحتاجونه في معاشهم ومعادهم ، وختم به الكتب السابقة ، وجعله مهيمنا عليها ، وناسخا لها ، محفوظا من التغيير بحفظ الله له ، وجعله آية باقية إلى قيام الساعة ، قائما بمصالح العباد في الحال والمآل ، وكفيلا بسعادتهم في المعاش والمعاد ، كما قال تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾، وقال تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾.

فالله ـ جل وعلا ـ هنا يحمد نفسه المقدسة على إنزاله كتابه العظيم على رسوله الكريم ، لأنهما نعمتان عظيمتان ، يستحق سبحانه وتعالى الحمد عليهما ، كما قال تعالى : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ . و(المنّة) هي النعمة العظيمة ، وبهاتين النعمتين أخرج الله الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الكفر والضلال إلى الإيمان والهداية ، كما قال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

والخلاصة : أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم على عبده ورسوله محمد ﷺ مستقيما ، لا اعوجاج فيه عن الحق ، ولا اختلاف فيه ولا اضطراب. بل بعضه يصدق بعضا ، بل ومصدق لما بين يديه من الكتاب أيضا ، وهو مع ذلك في غاية من الوضوح والبيان ﴿ يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم ﴾ ، وقد جعله الله كفيلا بمصالح العباد في الدنيا والآخرة ، فلا غنى لهم عنه .

وقد دلت هذه الآية على مدح هذا (الكتاب) من جهتين، الأولى: بنفي العيب عنه ، بقوله: ﴿ ولم يجعل له عوجا ﴾، والثانية : بإثبات الكمال له ، بقوله : ﴿ قيما ﴾ .

(تنبيه) : يشرع السكت على قوله ﴿ عوجا ﴾، فلا توصل بـ ﴿ قيما ﴾ لئلا يوهم التعارض .

ثم بين تعالى الغاية من إنزال هذا الكتاب عليه ـ ﷺ ـ فقال : ﴿ لينذر بأسا شديدا ﴾ فاللام للتعليل أي أنزله لأجل أن ينذر به ، وأصل (الإنذار) إعلام مع تخويف وتهديد ، كما في قوله : ﴿ فأنذرتكم نارا تلظى ﴾ ، وقوله : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ ، و(البأس) هو العذاب والعقاب ، كما قال تعالى : ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ أي عذابنا وعقابنا لهم ، و(الشديد) هو القوي الغليظ .

ثم وصف هذا العذاب بأنه ﴿ من لدنه ﴾ أي كائنا من عنده جل وعلا ، لا من عند أحد غيره ، ولك أن تتصور هذا العذاب الشديد إذا جاء من أعظم العظماء ، وأكبر الكبراء ، فإنه دليل على عظيم خطره ، وشدة بأسه ، كقوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ . ومثله ـ أيضا ـ أضافة الأجر إلى نفسه ـ سبحانه وتعالى ـ فإنه يدل على عظمته، كما قال تعالى : ﴿ وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ﴾ .

ولم يذكر ههنا المنذَرين (بفتح الذال) والمراد بهم الكفار والعصاة كما سيأتي .

والمعنى : ليخوف الذين كفروا وعصوا ـ جزاء كفرهم وعصيانهم ـ عذابا شديدا صادرا من عنده جل وعلا ، إما في الدنيا والآخرة ، وإما في الآخرة ، فيما إذا أمهلهم ، واستدرجهم ، وهذا يعم المؤمن والكافر ، وإما في الدنيا فقط ، وهذا في حق المؤمن خاصة . لأن الكافر لا بد أن يعذب في الآخرة .

وأنواع البأس والعذاب كثيرة : كالصاعقة والريح والطوفان والصيحة والرجفة والخسف والمسخ وقلب القرى ورميها بالحجارة ، ومنها دون ذلك وهو الابتلاء بالمصائب والآفات كالموت والمرض والجوع والفقر والخوف .

وهذا من رحمة الله بعباده ، حيث قيض لهم هذه العقوبات على مخالفة أمره ، أو انتهاك محارمه ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويرجعون إلى ربهم ، قبل فوات الأوان ، كما قال تعالى : ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ .

وبعد أن ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ جزاء العصاة الظالمين ذكر جزاء الطائعين ، كما هي سنته تعالى ، في ذكر الترغيب عقب الترهيب ، أو العكس ، كما في قوله تعالى : ﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب ، وأن الله غفور رحيم ﴾ وقوله : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ ، وكذلك ههنا بعد أن ذكر الترهيب أعقبه بالترغيب فقال :

﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ۞ ماكثين فيه أبدا ﴾ ، البشارة تطلق غالبا على الإخبار بما يسر كما هو هنا ، وقد تطلق على الإخبار بما يسوء ، كقوله تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما ﴾ ، وقوله : ﴿ وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ إما من باب التهكم ، كقوله تعالى : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ ، وإما لما يحصل بها من تغير في البشرة ، كما يحصل عند الإخبار بما يسر .

و ﴿ المؤمنين ﴾ هم الذين صدقوا بما يجب التصديق به ، قولا وعملا واعتقادا ، وأركان الإيمان ستة ، كما وردت في حديث جبريل عليه السلام الثابت في صحيح مسلم وهي : (الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره) .

و(الإيمان) في اللغة هو التصديق ، كما في قوله تعالى : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ ، وفي الشرع : التصديق الجازم المستلزم للقبول والانقياد ، وهو قول باللسان ، واعتقاد بالْجَنان أي القلب ، وعمل بالأركان أي الجوارح ، يدل لذلك قول النبي ﷺ : (الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول: لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان) رواه مسلم، فـ (لا إله إلا الله) قول باللسان ، و (إماطة الأذى عن الطريق) عمل بالجوارح ، و (الحياء) عمل للقلب .

والإيمان ـ عند أهل السنة والجماعة ـ يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية ، كما قال تعالى : ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيمانا ﴾ ، وقال : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ﴾ ، وقال : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ﴾ ، وقال : ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ عطفا للخاص على العام ، فإنه قد تقرر أن الأعمال من الإيمان ، وعطف الخاص على العام يدل على عظيم شرف الخاص ، وعلو قدره بين أفراد العموم ، كقوله تعالى في بيان شرف جبريل : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ ، وقوله : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة ﴾ ، وقوله : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ ، والروح ـ في هذه الآيات ـ هو جبريل عليه السلام ، أفرده ـ تعالى ـ بالذكر بعد دخوله في عموم الملائكة لعظيم منزلته ، وعلو قدره بينهم ، كما قال تعالى : ﴿ ذي قوة

عند ذي العرش مكين مطاع ثَم أمين ﴾ ، أي صاحب قوة عظيمة ، وهو عند الله تعالى (مكين) أي ذو مكانة وقدر وشرف ، وهو أيضا (مطاع) الأمر ، هنالك في عالم الملائكة ، لا يعصى له أمر ، لأنـه كبيرهم وشريفهم ، وهو أيضـا (أمين) على وحي الله تعالى لا يمكن أن يخون فيزيد فيه ، أو ينقص عنه ، بل يبلغه للرسول ﷺ كما أخذه عن ربه ـ جل وعلا ـ بلا نقص فيه ، ولا زيادة عليه .

و(الأعمال الصالحات) هي ما أمر الشرع بـه من أقوال وأفعال، وجوبا أو استحبابا، ولا تكون صالحة إلا إذا جمعت وصفين: الإخلاص لله تعالى ، والمتابعة لرسول الله ﷺ ، ويلاحظ دائما تقييد الأعمال بالصلاح كما هو هنا، أو الحسن كما في قوله تعالى: ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ ، مما يدل على أن المعتبر ليس هو مجرد العمل أو كثرتـه ، فإن العمل إذا لم يكن صالحا فهو مردود ولو كان كثيرا ، كما قال تعالى : ﴿ إنـه عمل غير صالح ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ ، وقال النبي ﷺ : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) متفق عليه ، ورواه مسلم بلفظ : (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما يبشَّر به هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقال : ﴿ أن لهم أجرا حسنا ﴾ الأجر هو ما يعطى للعامل مقابل عمله ، ويسمى الخَرْج والجُعْل وهو الأجرة ، و(حسنا) : أي كريما جميلا ، وصفه بالحسن لتمامه وكماله ، كما قال تعالى : ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما ﴾، وقال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، كما ورد بذلك الحديث القدسي . وهذه المضاعفة بحسب إيمان العبد وعمله وإخلاصه .

والمراد بالأجر الحسن الجنة وما فيها من نعيم مقيم ، أبد الآبدين ، بفضل أرحم الراحمين .

ولهذا قال تعالى : ﴿ ما كثين فيه أبدا ﴾ أي لابثين مقيمين خالدين في هذا الأجر الحسن ، لا ينتقلون عنـه ، ولا يتحولـون ، ولا يميلون عنه ، ولا يظعنون ، فلا هم يصرفون عنه ، ولا هو يصرف عنهم ، بل كل منهما ملازم للآخر ، بفضل الله ورحمته ، كما قال تعالى : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ، ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ ، وقال الله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي : (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) واقرأوا إن شئتم : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ متفق عليه ، وأعظم نعيم أهل الجنة فيها حلول رضوان الله تعالى عليهم ، ورؤية وجهه الكريم ، قال تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولدينا مزيد ﴾ .

والمعنى : ويبشر الذين يصدقون الله في أخباره ، ويمتثلون أوامره ، ويجتنبون نواهيه ، بأن لهم ثوابا جزيلا منه على إيمانهم ، وأعمالهم الصالحة ، التي قدموها في حياتهم الدنيا ، وذلك الثواب الجزيل هو الجنة التي وعدها الله عباده المتقين ، وما فيها من نعيم مقيم ، خالدين فيها أبد الآبدين ، لا ينتقلون عنها ولا يرتحلون . قد أحاط هذا الأجر ، وذاك النعيم بهم من كل جانب ، عن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ومن فوقهم ، بل ومن تحت أرجلهم ، كما قال تعالى : ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ، خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين ﴾ ، نسأل الله تعالى أن يمن علينا بذلك ، وإن كنا لسنا أهلا له ، بسبب تقصيرنا الكبير ، ولكنه جل وعلا ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ .

وفي تسمية ثوابهم أجرا ـ مع أنه محض فضل وإحسان منـه ـ سبحانه ـ دليل على التزامه تعالى بـه ، وإيجابه لهم على نفسه الكريمة ، والله لا يخلف الميعاد .

ومن الأجر الحسن ما هو في الدنيا أيضا ، كما قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينـه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ، ولأدخلناهم جنات النعيم ، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ ، وقال نوح لقومـه : ﴿ وقلت استغفروا ربكم إنـه كان غفارا يرسل السماء عليهم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ ، والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وهي كلها وعود حق وصدق ، لو حقق الناس شرطها .

ثم بين ـ تعالى ـ المنذَرين، الذين أنذرهم بأسا شديدا من عنده ـ سبحانه ـ وبين بعض أسباب هذا الإنذار، فقال تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ﴾ أي ويحذر ويخوف ـ من بين هؤلاء الكفار ـ من قالوا هذه المقالة الشنيعة ، وهي أن الله اتخذ ولدا ، وهم ثلاث طوائف من الكفار : اليهود الذين قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، والمشركون الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

وإنما خص هؤلاء مع دخولهم في الإنذار السابق ـ لعموم الكفرة والعصاة ـ لفظاعة حالهم ، وشناعة كفرهم ، وقبح ضلالهم . قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ والإفك هو الكذب العظيم ، وقال عن المشركين : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ! أشهدوا خلقهم ! ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ! ولهم ما يشتهون ! وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب إلا ساء ما يحكمون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدًّا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ .

ثم بين تعالى أن مقالتهم هذه ليست صادرة عن علم وبينة ، ولا عن حجة وبرهان ، بل هو محض كذب وتخرص وافتراء على الله جل وعلا ، فقال تعالى : ﴿ مالهم به ﴾ أي بهذا القول ـ وهو نسبة الولد لله ـ تعالى ـ ﴿ من علم ﴾ ، وإذا انتفى أن يكون صادرا عن علم لم يبق إلا الجهل ، والظنون الكاذبة ، والتقليد الأعمى للآباء ، كما قال تعالى : ﴿ فما ذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ ولا لآبائهم ﴾ أي وليس لأسلافهم الذين يقتدون بهم في هذا الكفر والضلال من عِلمٍ أيضا بذلك .
وإنما امتنع أن يكون له ولد ـ سبحانه ـ لأن الولد يكون مشابها لوالده ، ويكون من زوجة ، ويراد به بقاءُ النسل ، والحاجةُ إليه في النصرة والمعونة عند الكبر ، والله جل وعلا لا ند له ولا مثيل ، ولا كفو له ولا نظير ، كما قال تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا ، وأنتم تعلمون ﴾ ، أي أنه لا ند له سبحانه ، و قال : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ، وقال : ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ، وقال : ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ ، ولا زوجة له ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعلى عما يصفون، بديع السموات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ ، وهو الغني عن جميع خلقه ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ، و(الصمد) هو الكامل في صفاته ، الغني بذاته ، المفتقرة إليه جميع مخلوقاته ، ولهذا قال تعالى في الحديث القدسي : (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر) رواه مسلم .
وأشهر هذه الطوائف النصارى الذين اتخذوا عيسى ولدا لله كما تقدم ، وجعلوه إلها من دون الله ، كما في قوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ ، وزادوا على ذلك أمه أيضا ، كما قال تعالى : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ ، وشبهتهم في عيسى أنه خلق بلا أب ، وأنه كلمة الله ، وأنه روح منه ، فقالوا : إذاً هو ابن الله ـ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ـ وقد رد الله زعمهم هذا في آيات كثيرة ، منها ما ورد في صدر (سورة آل عمران) فإنها في مجادلة أهل الكتاب ، ومحاجة النصارى ـ خاصة ـ في شأن عيسى عليه السلام ، ورد باطلهم ، وكشف شبهاتهم ، وبيان زيغهم وضلالهم ، ومن ذلك ما ورد في قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ ، فإذا كان من خلق بلا أب ابنا لله ـ على حد زعمهم ـ فآدم عليه السلام أولى بذلك ؛ لأنه خلق بلا أب ولا أم ، وهم لا يقولون به ، فبطلت شبهتهم ، ودُحِضت حجتهم . وكونه روحَ الله ، كما قال تعالى : ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ ، أو كلمتَه وروحاً منه ، كما قال تعالى : ﴿ كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ ، لا يدل ذلك على أنه بعض منه كما يزعمون ، فمعنى : (كلمته) أنه خلق بمجرد كلمة (كن) بلا أب ، كما قال تعالى عن مريم : ﴿ قالت أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ، قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ . والإضافة في (روحنا) للتشريف ، كالإضافة في ﴿ عبدنا ﴾ و ﴿ مساجد الله ﴾، و(منه) في قوله: (وروح منه) ليست للتبعيض، ولكنها كقوله تعالى: ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه ﴾ ، ولا أحد يفهم أن (من) هنا للتبعيض ، ويقول بأن هذه المخلوقات بعض من الله جل وعلا . فهذا كلام في غاية السقوط ، ونهاية البطلان ، ولكن المعنى من عنده سبحانه وتعالى .
وزاد في رد شبهتهم بقوله : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقةٌ كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ . ومن العجيب أنهم يعتقدون ـ جهلا منهم ـ أنه قُتِل وصُلِب ، ولهذا يلبسون الصليب علامة على ذلك ، فكيف يكون إلها من يحتاج إلى الأكل والشرب في بقائه ، بل كيف يكون إلها من يقتل ويصلب ، ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، ولا حيلة من خلقه ولا خلاصا، فهل هذا إلا تناقض عجيب ، وجهل عريض .
ولهذا قال تعالى : ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ أي عظمت مقالتهم هذه في الكفر حيث لم يقتصروا على اعتقاد ذلك في صدورهم ، بل وصلت بهم الحال إلى أن يتلفظوا بها ، ويعلنوا بها أيضا ، رسوخا في الكفر ، وانغماسا في الضلال ـ والعياذ بالله ـ . والمراد بـ(الكلمة) الكلام الذي هو قولهم.
ثم بين حقيقة زعمهم هذا بقوله : ﴿ إن يقولون إلا كذبا ﴾ أي ما يقولون ـ هم وأسلافهم ـ إلا قولا كذبا ، فهو محض كذب وافتراء على الله تعالى ، لأنه قول لا مستند له ، بل لا حقيقة له ، ولا أصل له في الوجود ، فما أعظم قبح هذه المقالة ، وما أشنعها ، حيث نسبوا الولد لله سبحانه وتعالى . و(الكذب) هو مخالفة الخبر للواقع.
وتأمل كيف أبطل ـ سبحانه ـ هذا القول بالتدريج، والانتقال بهم من باطل إلى أبطل منه، فأخبر أولا أنهم ﴿ ما لهم به من علم ولا لآبائهم ﴾ ، والقول على الله بلا علم لا شك في بطلانه ومنعه ، ثم أخبر ثانيا: أنه قول قبيح شنيع فقال: ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾، ثم ذكر ثالثا: مرتبته في القبح وهو الكذب المنافي للصدق، وأعظم أنواع الكَذِب الكَذبُ على الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾.
ولما كان النبي ﷺ حريصا على هداية الخلق، ساعيا في ذلك أعظم السعي ـ يفرح ويسر بهداية المهتدين ، ويحزن ويأسف على إعراض المكذبين الضالين، شفقة عليهم، ورحمة بهم ـ أرشده الله تعالى إلى أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء المعرضين، الذين لا يؤمنون بآيات هذا القرآن الكريم، الذي فيه هدايتهم وصلاحهم في الأولى والآخرة .
فقال تعالى :
﴿ فلعلك باخع نفسك ﴾ أي قاتلها ومهلكها ﴿ على آثارهم ﴾ أي على آثار هؤلاء الكفار ، جمع أَثَر، بفتح الهمزة والمثلثة ، ويقال: إثْر بكسر الهمزة وسكون المثلثة ﴿ إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴾ وهو القرآن ، أي من بعد توليهم عن الإيمان به ﴿ أسفا ﴾ و(

الأسف) هنا شدة الحزن، أي حزنا وأسى وحسرة، ويراد به الغضب أيضا، ومن إطلاق (الأسف) على الغضب قوله تعالى: ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ أي أغضبونا.
قال الزمخشري - رحمه الله - في " تفسيره ": شبهه وإياهم - حين تولوا عنه ، ولم يؤمنوا به ، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم شبهه - برجل فارقه أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ، ويبخع نفسه وجدا عليهم، وتلهفا على فراقهم. اهـ. فهي نظير قوله تعالى : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾.
و(لعل) في الأصل للرجاء في المحبوب، والإشفاق في المحذور، ولكنها هنا للاستفهام الإنكاري ، فكأنه قال : لا تبخع نفسك ، أي لا تهلكها إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ ، وقوله : ﴿ ولا تحزن عليهم ، ولا تك في ضيق مما يمكرون ﴾ .
لأن وظيفة النبي ﷺ هي البلاغ والتذكير ، كما قال تعالى : ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ ، وقال : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر ﴾ ، وقال : ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنت عليهم بوكيل ﴾ ، وكذا وظيفة من دونهم من العلماء والدعاة هي البلاغ والتذكير ، لا الإجبار والتوفيق ، لأن هذا النوع من الهداية بيد الله جل وعلا ، لا يقدر عليه أحد غيره ، كما قال تعالى : ﴿ ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ ، وقال : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ ، وقال : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ .
وخلاصة ما تقدم : أبلغهم - يا رسول الله - رسالة ربك ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فعليها ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ ، ولا تذهب نفسك عليهم أسى وأسفا ، ولا حسرة وحزنا ، فإنما أنت نذير ، وحسابهم على العليم الخبير ، كما قال تعالى : ﴿ إنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب ﴾ .
قال ابن سعدي - رحمه الله - في " تفسيره " : وفي هذا إرشاد إلى كل من يدعو إلى الله تعالى، قد نصب نفسه لهداية الناس ، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، أن يبلغ شرع الله تعالى بالتي هي أحسن، ويجتهد في سلوك كل طريق فيه هدايتهم، وسد كل سبيل فيه ضلالهم وغوايتهم، بقدر الإمكان، ويفوض أمره إلى الله جل وعلا، فإن اهتدوا فبها ونعمت، وإلا فلا يحزن ولا يأسف عليهم، لأن الله خلق أقواما لا يصلح لهم إلا النار، ولأن ذلك مضعف للنفس، هادم للقوى، ليس فيه فائدة ، بل يمضي في شأنه الذي كلف به، ثم لا يلتفت إلى النتيجة، لأنها ليست داخلة تحت قدرته . اهـ .
ثم بين تعالى حقيقة هذه الحياة الدنيا ، وحقيقة ما جعله الله على وجهها ، وهو أنه جعل ما عليها زينة لها ؛ ليختبر المحسن والمسيء ، ثم يجازي كلا بما يستحق ، فقال :
﴿ إنا جعلنا ﴾ أي صيرنا ﴿ ما على الأرض ﴾ من جبال وحيوان ، ونبات وأشجار ، وزروع وثمار، وبحار وأنهار ، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وزخارف ومعادن ، كذهب وفضة ، وقصور ونساء ، وبنين وأموال، جعلها ﴿ زينة لها ﴾ أي للأرض ولأهلها ، والزينة ما يُجمَّل به الشيء ويُحسَّن به ، كما قال تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾ ، وقال : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ ، وقال: ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾، فزيَّن الأرض - سبحانه - بمثل هذه الأشياء ، كما زين السماء الدنيا بمصابيح وضاءة ، وكواكب ثوابت وسيارة . ليمتحن الناس بها ، ويختبر فهمهم لها ، من الذي يفهم مقاصد تلك الزينة ويستدل بها على وجود خالقها ، فيقوم بطاعته محبة له وتعظيما ، رجاء فضله وثوابه ، ويجتنب معصيته خوفا من بطشه وأليم عقابه . ومن الذي يغتر بها فيجعلها مطية لكفره وضلاله .
ثم بين - سبحانه - الغاية من هذه الزينة بقوله : ﴿ لنبلوهم ﴾ أي لنختبرهم في هذه الحياة الدنيا ليتبين ﴿ أيهم أحسن عملا ﴾ وحسن العمل يكون بأمرين : بالإخلاص لله ، والاتباع لرسول الله ، ويقابل الحسن القبيح ، وهو ما اختل فيه شرط منهما ، فيقابل الإخلاص الشرك بالله ، ويقابل الاتباع الابتداع . فدلت هذه الآية على أن العبرة إنما هي بحسن العمل وصلاحه لا بكثرته ، كما تقدم . وقد بين النبي ﷺ الإحسان بقوله: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم.
وعليه فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بهذه الزينة ، بل يجعلها وسيلة لتحقيق الغاية التي خلق من أجلها في هذه الحياة ، لا كما يفعل الكفار والفسقة الفجار من الاغترار بها ، وجعلها وسيلة لكفرهم وعصيانهم ، كما قال تعالى : ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾ . وقال : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ .
فخلاصة ما تقدم : هو أن الله - تعالى - جعل ما على الأرض من زينة لأجل أن يختبر الناس بها ، مَن الطائع لربه ومولاه ، ومَن المتبع لشهواته وهواه ، قال النبي ﷺ : (إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) . وقال ﷺ : (إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا) قال : وما زهرة الدنيا ؟ قال : (بركات الأرض) خرجهما مسلم في صحيحه . ثم يجازي كلا بعمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، قال تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾، وقال في الحديث القدسي : (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) رواه مسلم .
ثم بين - سبحانه - مصير هذه الزينة بعد أداء مهمتها ، وفراغ عمر هذه الحياة الدنيا ، فقال : ﴿ وإنا لجاعلون ﴾ أي مصيِّرون ﴿ ما عليها ﴾ أي ما على الأرض من زينة عند انتهاء عمر الدنيا ﴿ صعيدا جرزا ﴾ (الصعيد) وجه الأرض ، و(الجرز) الأرض غير المنبتة ، أي أرضا يابسة ، لا نبات فيها ولا زينة ، بل نجعلها حطاما ركاما ، ونهلك كل ما كان على وجهها ، بعد أن كانت خضراء معشبة ، معمورة بالبناء ونحوه، قال تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ ، وقال : ﴿ كل من عليها فان ﴾ ، وقال : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا ، فيذرها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾، وقال: ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازَّيَّنت وظن أهلها

أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ أي نجعلها كأنها لم تمر بنعيم قط قبل ذلك .
وفي هذه الآية تسلية للنبي ﷺ ، وكأن الله تعالى يقول له : لا تحزن لما ترى منهم وتسمع ، فإنا سننتقم لك منهم عما قريب ، فإن الدنيا قد أزفت على الرحيل .
وخلاصة المعنى : أن ما تراه على وجه الأرض من زينة ـ جعلت للاختبار ـ سيصير عما قريب خرابا بلقعا ، وقاعا صفصفا ، بعدما كان بهجة للناظرين ، وقرة عين للباصرين، ويأتي بعد ذلك يوم الحساب على الأعمال، والجزاء على الأقوال والأفعال، فلا تحزن لما تراه من تكذيبهم لك ، وكفرهم بآيات ربك ، فإن موعدهم الغد ، وإن غدا لناظره لقريب .

(شروع في بيان قصة أصحاب الكهف)

ثم شرع ـ تعالى ـ يذكر لهم قصة الفتية الذين سألوا عنهم رسول الله ﷺ؛ ليختبروا صدقه في كونه رسولا من عند الله جل وعلا، فقال تعالى:
﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ﴾ (أم) هنا منقطعة فتقدر بـ(بل) وهمزة الاستفهام ، أي : بل أحسبت ، و(حسبت) بمعنى ظننت ، والخطاب هنا لكل من يصح توجيه الخطاب إليه ، فيعم النبي ﷺ وأمته من بعده، والاستفهام المراد به هنا الإنكار والنهي أي : لا تحسب ، و(الأصحاب) جمع صاحب وهو القرين الملازم ، و(الكهف) هو النقب الواسع في الجبل ، فإن لم يكن واسعا فهو غار ، و(الرقيم) قيل : هو اسم الوادي الذي فيه كهفهم ، وقيل : اسم الجبل ، وقيل : اسم القرية ، وقيل : اسم كلبهم ، وقيل : هو اللوح الذي كتبت فيه قصتهم ، ولعل هذا أقرب من حيث اشتقاق الكلمة ، فـ(الرقيم) فعيل بمعنى المفعول ، أي المرقوم ، وهو المكتوب ، ويشهد له قوله تعالى في سورة المطففين : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ أي مكتوب ، ولهذا اختاره الإمام ابن جرير، واستظهره الحافظ ابن كثير رحمهما الله، فهو إذاً لوح ـ قيل: من حجر، وقيل من رصاص، وقيل من نحاس ـ كتبت فيه قصتهم ، ورقمت فيه أسماؤهم، ودون فيه تاريخهم. وقوله : ﴿ عجبا ﴾ أي كانوا آية عجيبة من آياتنا ؟
والمعنى : لا تظنَّ أن قصة أصحاب الكهف والرقيم ـ من حفظ فتية من الناس مدة من الزمن في النوم ، لا تظن ـ أنها آية عجيبة بالنسبة إلى سائر آياتنا المبثوثة في الآفاق ، فإن آياتنا كلها عجب ، وفيها ما هو أعجب من قصتهم ، وأبدع من آيتهم، كخلق السموات والأرض ، وما فيهما وما بينهما من مخلوقات عجيبة ، وأحوال غريبة ، كاختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، كما قال تعالى : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ ، وقال : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ ، وقال : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ۝ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾، وأعظم من ذلك الكرسي ، وأعظم منه العرش، هذا ما علمنا من خلق الله ، فكيف بما جهلنا ؟ لا سيما وقد قال تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾، وإذا كان خلق الله بهذه العظمة، فما أعظم الخالق لها ، وما أجله وأكبره ! ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾.
وليس المقصود من هذا النفي نفي أن تكون قصة أصحاب الكهف عجيبة، بل هي من آيات الله العجيبة، ولكن المراد أن جنسها كثير جدا، وهناك من آيات الله ما هو أعجب منها، فالوقوف عندها وحدها في مقام الاستعجاب والاستغراب، فيه نقص وخلل، والواجب على المرء أن يتفكر في جميع آيات الله المبثوثة في أرجاء هذا الكون الواسع، لتقوده إلى الإيمان الصادق، واليقين الراسخ.

(إجمال قصة أصحاب الكهف)

ثم شرع ـ تعالى ـ يبين قصتهم على وجه الإجمال فقال:
﴿ إذ أوى ﴾ (إذ) ظرف لما مضى من الزمان ، متعلق بفعل محذوف تقديره : اذكر ، والمعنى : اذكر حين لجأ ﴿ الفتية ﴾ فارّين بدينهم من قومهم المشركين ، لئلا يفتنوهم عنه ، و(الفتية) جمع فتى وهو الشاب ، وهو من جموع القلة، مما يدل على أنهم دون العشرة، فقد كانوا سبعة من الشباب ـ كما سيأتي ـ أوَوا ﴿ إلى الكهف ﴾ أي إلى غار واسع في الجبل، لجأوا إليه ليختفوا عن قومهم، ويعبدوا فيه ربهم ﴿ فقالوا ربَّنا ﴾ أي يا ربنا ، حذفت أداة النداء تخفيفا ، والمعنى : يا خالقنا ومالكنا ورازقنا ومدبر شؤوننا وإلهنا ، فإن مدار الرب على هذه المعان ﴿ آتنا من لدنك رحمة ﴾ أي أعطنا رحمة من عندك ترحمنا بها ، فتسترنا عن قومنا ، وتنجينا منهم ﴿ وهيئ ﴾ أي أصلح وأتمم ﴿ لنا من أمرنا ﴾ وهو فرارهم بدينهم من قومهم ﴿ رشدا ﴾ أي هداية وتوفيقا إلى توحيدك وعبادتك ، وعدم الإشراك بك ، ويسر لنا أسباب النجاة من فتنة هؤلاء.
فاستجاب الله دعاءهم فقال : ﴿ فضربنا على آذانهم ﴾ أي حجابا من النوم، والمعنى : أنمناهم نومة ثقيلة بحيث لا يسمعون ولا ينتبهون لما يدور حولهم ، والضرب على الأذن كناية عن النوم الثقيل ﴿ سنين عددا ﴾ أي ذوات عدد ، وصفت السنين بذلك للتكثير، إظهاراً لكمال قدرة الله جل وعلا، وواسع رحمته بهم، وفي التعبير بالفاء التي تدل على الترتيب والتعقيب ، إشارة إلى سرعة استجابة الله لدعائهم ، وهو نظير قوله تعالى : ﴿ هنالك دعا زكريا ربه ، قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ﴾ ، وفي الصحيح عن أنس: قال دخل رجل المسجد والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة ، فقال يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا ، فرفع النبي ﷺ يديه ، وقال : اللهم أغثنا اللهم أغثنا ، فما نزل رسول الله ﷺ من على المنبر إلا والمطر يتحادر من لحيته).
﴿ ثم بعثناهم ﴾ أي أيقظناهم من تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت ﴿ لنعلم ﴾ علما واقعا بالفعل ﴿ أي الحزبين ﴾ أيْ: أيُّ الفريقين المختلفين في مدة مكثهم ﴿ أحصى لما لبثوا أمدا ﴾ أي أضبط وأحفظ لمدة لبثهم في الكهف وهم نيام ، و(الأمد) هو المدة من الزمن ؛ لأنهم لما انتبهوا اختلفوا في ذلك، فالله ـ جل وعلا ـ أيقظهم بعد هذه المدة، ليعلموا قدر عناية الله بهم ، من حفظهم بلا طعام ولا شراب، آمنين من عدوهم.

(إشكال وجواب)

هذا الأسلوب يرد كثيرا في آيات القرآن الكريم وهو: (فعلنا كذا لنعلم كذا)، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾، ونحوها من الآيات.
والإشكال هو : أليس الله جل وعلا يعلم من سيتبع الرسول ممن سينقلب على عقبيه قبل تحويل القبلة ؟
والجواب: بلى، يعلمه ـ تعالى ـ علما يقينيا لا شك فيه ولا ريب. فإن عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله تعالى يعلم ما كان في الماضي ، وما هو كائن في الحاضر ، وما سيكون في المستقبل ، بل وما لم يكن لو كان كيف يكون. خلافا للكفرة الملاحدة ومن شابههم.
فإن قيل : فما توجيه ذلك إذاً ؟ فالجواب: علم الله للشيء نوعان: علم قبل وقوعه بالفعل، وهذا لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وعلم بعد وقوعه، وهو الذي يترتب عليه الحساب الجزاء. فمراده ـ تعالى ـ بقوله: ﴿ إلا لنعلم من يتبع الرسول ﴾ أي إلا لنعلم علما واقعا بالفعل يترتب عليه المجازاة.
ومثل ذلك قوله تعالى هنا: ﴿ ثم بعثناهم لنعلم أيُّ الحزبين أحصى ﴾، أي لنعلم علما واقعا بالفعل. ويتبين ويظهر أيهم أضبط وأحفظ لمدة لبثهم في الكهف، كما قال تعالى بعد ذلك: ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم ﴾.
قال محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ في " أضواء البيان ": وقد قدمنا أن من أصرح الأدلة على أنه ـ جل وعلا ـ لا يستفيد بالاختبار والابتلاء علما جديدا ـ تعالى عن ذلك علوا كبيرا ـ قوله تعالى في آل عمران: ﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور ﴾، فقوله: ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ بعد قوله: ﴿ وليبتلي ﴾ دليل واضح في ذلك. وإذا حققت ذلك فمعنى: ﴿ لنعلم أي الحزبين ﴾ أي لنعلم علما يُظهِر الحقيقة للناس، فلا ينافي أنه كان عالما به قبل ذلك دون خلقه. اهـ.

(تفصيل قصة أصحاب الكهف)

ثم شرع ـ سبحانه ـ يبين قصتهم على وجه البسط والتفصيل فقال :
﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ (نحن) ضمير يعود على الجمع تارة، وعلى الواحد المعظم نفسه تارة أخرى، كما هو هنا، فإن المراد به ههنا التعظيم والتفخيم، لأنه قد علم بالضرورة أن الله واحد لا شريك له، و(القص) في الأصل تتبع الأثر كقوله : ﴿ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ ، وهو هنا تتبع أطراف الخبر وحكايته، و(النبأ) الخبر الهام ، و(الحق) هو الصدق ، والأمر المطابق للواقع.
والمعنى: نحن نتلو عليك خبرهم على الوجه المطابق للواقع ، بلا زيادة ولا نقص ، ولا شك ولا ريب، وفي هذا إشارة إلى أن خبرهم كان معروفا عند العرب، ولكن ليس على الوجه الحق.
ثم قال تعالى : ﴿ إنهم فتية ﴾ أي شباب، وليسوا شيوخا ، والشباب غالبا أقرب لاتباع الحق من الشيوخ الذين قد انغمسوا في الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ورسوله من الشباب ، قال تعالى : ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ ، ﴿ وإذ قال موسى لفتاه ﴾ ، أما عامة شيوخ قريش فاستمروا على ضلالهم ، وبقوا على دينهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل.
﴿ آمنوا بربهم ﴾ أي بوحدانيته إيمانا يقينيا ، على خلاف ما كان عليه قومهم من الشرك بالله تعالى ﴿ وزدناهم هدى ﴾ أي علما نافعا ويقينا، وعملا صالحا وتوفيقا، جزاء إيمانهم وتوحيدهم ، والجزاء من جنس العمل ، كما قال تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ ، وقوله : ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ﴾، وقوله: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾. ويفهم من هذه الآية أن من آمن بربه وأطاعه زاده ربه هدى، لأن الطاعة سبب لمزيد من الهدى والإيمان.
ثم قال تعالى : ﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ (الربط) هو الشد ، أي شددنا على قلوبهم ، وقوينا عزائمهم بالإيمان ، وثبتناهم على التوحيد ، وصبرناهم على هذه الحال المزعجة، وجسرناهم على المجاهرة بعقيدتهم ، والدعوة إليها ، وإعلانها صراحة عند ملكهم الجبار، من غير خوف ولا جزع، ثم مفارقة الأهل والنعيم، والفرار بالدين في غار لا أنيس به ولا ماء ولا طعام. فدلت هذه الآية على أن من كان في طاعة ربه ـ جل وعلا ـ فإن الله تعالى يقوي قلبه، ويثبته على تحمل الشدائد، ويوفقه للصبر الجميل.
ثم بين تعالى صبرهم على مخالفة قومهم ، ورضاهم بمفارقة مدينتهم وأهليهم، وما كانوا عليه من رغد العيش بقوله تعالى : ﴿ إذ قاموا ﴾ أي بين يدي ملكهم الجبار ﴿ فقالوا ﴾ معلنين بعقيدتهم ودينهم ، غير مبالين به ولا بقومهم ﴿ ربُّنا ﴾ أي خالقنا ومالكنا ومدبر شؤوننا ومعبودنا هو ﴿ رب السموات والأرض ﴾ وما فيهما وما بينهما ، فالرب جل جلاله واحد ، وإذا كان كذلك فـ ﴿ لن ندعو من دونه إلها ﴾ أي لن نعبد أحدا غيره ، لا على وجه الاستقلال ، ولا على وجه الاشتراك ، لأنه إذا كان لا رب غيره لزم من ذلك ألا يكون هناك معبود غيره ، إذ كيف يُعبَد من لا يخلق ، ولا يملك ، ولا يرزق ، ولا يدبر شيئا ؟! فإذا كان لا رب غيره ، فلا معبود سواه.
وقد كان المشركون يقرون بتوحيد الربوبية ، وهو إفراد الله بالخلق والملك والرزق والتدبير ، وينكرون توحيد الألوهية ، وهو إفراده ـ سبحانه ـ بالعبادة، كما قال تعالى بالنسبة للربوبية : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾، وقال : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله قل فأنى تؤفكون ﴾ ، وقال عنهم بالنسبة للألوهية : ﴿ أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب ﴾ ، وقال : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ ، وقال : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ﴾ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله ﴾ أي بربوبيته ﴿ إلا وهم مشركون ﴾ به في ألوهيته.
فإذا دعونا مع الله أحدا غيره ﴿ لقد قلنا إذا شططا ﴾ أي قولا بعيدا عن الحق والصواب، وأصل (الشطط) مجاوزة الحد، ومنه قوله تعالى في قصة داود مع الخصمين : ﴿ فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن قومهم أرادوا منهم دعاء غير الله جل وعلا ، فأبوا عليهم ، وقالوا مقالتهم هذه، وفيه أيضا دليل على أن دعاء غير الله شرك. ولهذا نهي عنه في آيات كثيرات، منها قوله تعالى: ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا ﴾. وقال النبي ﷺ: (الدعاء هو العبادة) رواه أحمد وأهل السنن.

فهؤلاء الفتية جمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وبينوا أن هذا هو الحق، الذي يجب أن يكون عليه قومهم، وأن ما سواه باطل، لا يمكن أبدا أن يسكتوا عنه، فضلا عن إقراره أو الإيمان به، وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم، وعظيم هداية الله لهم.

ثم لما ذكروا ما من الله به عليهم من الإيمان والهدى والتوفيق ، التفتوا إلى ما كان عليه قومهم، من اتخاذ آلهة من دون الله فمقتوهم وبينوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال، فقالوا:

﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ﴾ أي جعلوا مع الله آلهة أخرى ، يعبدونها مع الله تعالى ، فيحبونهم كحب الله، ويعظمونهم كتعظيم الله، ويطيعونهم في معصية الله، وفي ذكر اسم الإشارة ﴿ هؤلاء ﴾ تحقير لهم.

﴿ لولا يأتون عليهم ﴾ أي على جواز عبادتهم لها ، أو صحة ألوهيتها ﴿ بسلطان بين ﴾ أي بحجة واضحة ، وبرهان ساطع ، فإن الدين لا يقبل إلا بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ ، وفي هذا دليل على فساد التقليد ، واستحالة الإتيان بحجة على الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أي هي مجرد أسماء لا حقيقة لها ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أي من حجة ولا برهان ﴿ فمن أظلم ﴾ الاستفهام المراد به النفي ، أي لا أحد أظلم ﴿ ممن افترى على الله كذبا ﴾ وذلك بنسبة الشريك له ، وعبادته معه جل وعلا. كما افتراه عليه قوم أصحاب الكهف، كما في قوله: ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ﴾. ونظير تلك الآية قوله تعالى: ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق جاءه ﴾. وفي هذه الآية دلالة على تلازم الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان) رواه مسلم، وفي رواية: (وليس وراء ذلك مثقال حبة من خردل من إيمان).

(إشكال وجواب)

هذه الآية دلت على أنه لا أحد أظلم ممن افترى على كذبا، وقوله تعالى: ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله ﴾، دلت أيضا على أنه لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله.

فإن قيل : كيف الجمع بين هاتين الآيتين، وما في معناهما من الآيات ؟

فالجواب عن ذلك من وجهين : إما أن يقال : إن نفي الأظلم لا يمنع الاشتراك في الأظلمية، أو يقال : إن النفي في كلٍ بحسبه، فلا أحد في المفترين أظلم ممن افترى على الله كذبا ، ولا أحد في المانعين أظلم ممن منع مساجد الله ، ولعل هذا الثاني أقرب ، إذ يبعد أن يكون من افترى على الله الكذب ، ومن منع مساجد الله في الظلم سواءً.

ثم أخذ بعضهم يخاطب بعضا بقولهم: ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ أي وإذ فارقتم قومكم في دينهم، وخالفتموهم في عبادتهم غير الله ﴿ فأووا إلى الكهف ﴾ أي ففارقوهم بأبدانكم أيضا، لأنه لا سبيل لكم في قتالهم، ولا طريق لكم في البقاء بين أظهرهم، وأنتم على غير دينهم، ففارقوهم وذلك باللجوء إلى الكهف؛ لئلا يفتنوكم في دينكم ، ولتتمكنوا من القيام بعبادة الله وحده لا شريك له ، فإنكم إن فعلتم ذلك ﴿ ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ أي يبسط لكم ، ويوسع عليكم فيما تحتاجونه في عزلتكم هذه من أمن ورزق ﴿ ويهيء لكم ﴾ أي يسهل لكم ﴿ من أمركم ﴾ وهو الفرار بالدين ﴿ مرفقا ﴾ أي ما ترتفقون وتنتفعون به ، قالوا ذلك ثقة بفضل الله تعالى؛ لكمال إيمانهم به ، وعظيم توكلهم عليه ، وقوة رجائهم فيه . وفي الآية دليل على مشروعية العزلة إذا اضطهد المرء في دينه ، وطلب منه الشرك بالله. ودليل أيضا على أن اعتزال المؤمن قومه الكفار ومعبوديهم من أسباب لطف الله به ورحمته. ونظير الآية قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا ، فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا﴾.

والاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إلا الله ﴾ قيل: هو استثناء متصل، بناء على أنهم كانوا يعبدون الله مع الأصنام. وقيل: هو استثناء منقطع، بناء على القول بأنهم كانوا لا يعبدون إلا الأصنام، ولا يعرفون الله جل وعلا.

(ملخص قصة أصحاب الكهف)

أصح ما قيل في قصتهم هو أن هذه الحادثة كانت قبل مجيء النصرانية بدليل أن أحبار اليهود كانوا يحفظون أخبارهم ، ويعتنون بها ، وقد رُوِي ـ بإسناد فيه ضعف ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قريشا بعثوا إلى أحبار اليهود يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء الفتية ، وعن خبر ذي القرنين ، وعن الروح ، مما يدل على أن ذلك كان محفوظا عند اليهود ، وأنه مقدم على النصرانية .

فهم فتية كان قد قدم إلى مدينتهم من يدعو إلى الإيمان بالله تعالى ، فاستجاب له هؤلاء الفتية ، وخلعوا الوثنية التي كان عليها قومهم ، وفروا بدينهم خشية أن يفتنهم ملكهم عن دينهم أو يقتلهم ، فاستخفوا عنه في الكهف ، واعتزلوا فيه يعبدون الله تعالى وحده ، ودعوا ربهم أن ييسر لهم أمرهم هذا ، فاستجاب الله دعاءهم ، وأنامهم نومة ثقيلة ، ومكثوا سنين طويلة نائمين ، ثم أيقظهم الله ، ليدركوا مدى عناية الله بهم ، ورحمته بهم ، وليكونوا آية لغيرهم تدل على صحة البعث ، وإمكانية الحياة بعد الممات، ثم الحساب والجزاء، فلما انتبهوا جعل بعضهم يسأل بعضا قائلا : ﴿ كم لبثتم ؟ قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم ﴾، فلما رأوا أنهم لا علم لهم به ، ولا فائدة لهم منه ، قالوا : ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ﴾ ، وكان ورِق ذلك الزمان لدولة أهله ، فأرسلوا أحدهم يأتيهم بطعام ، فمضى حتى دخل المدينة ، فأنكر ما رأى لأن البلاد قد تغيرت ، والناس قد اختلفوا ، فأخرج ما معه من الدراهم ليشتري بها ، فلما رآه الناس ورأوا ما معه ، أنكروه وأنكروا دراهمه ، وقالوا من أين لك هذا ؟ هذا من ورِق غير هذا الزمان ، واجتمعوا عليه يسألونه، فلم يزالوا به حتى انطلقوا به إلى ملكهم ، فأخبره بأمره وأمر أصحابه ، فاستبشروا به وبأصحابه ، وقيل له : انطلق فأرنا أصحابك ، فانطلق وانطلقوا معه ليريهم مكانهم ، فدخل قبل القوم ، فضرب الله على آذانهم فأماتهم ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا ﴾.

(عَود على بَدء)

ثم شرع ـ سبحانه ـ يبين حالهم، وكيف كانت عنايته بهم، بعدما أووا إلى الكهف فقال :

﴿ وترى الشمس إذا طلعت ﴾ أي وتشاهد الشمس إذا صعدت عند طلوعها ﴿ تزاور ﴾ أي تميل وتنحرف ، وأصلها : (تتزاور) حذفت إحدى التاءين تخفيفا ، وأصل مادة (ز ـ و ـ ر) تدور على الميل والانحراف ، يقال : زاره إذا مال إليه ، وقول الزُّور، القول المائل عن الحق ﴿ عن كهفهم ﴾ أي عن بابه ﴿ ذات اليمين ﴾ أي جهة يمين الكهف عند توجه الداخل إليه ، فلا يقع شعاعها عليهم ﴿ وإذا غربت ﴾ أي وتراها إذا غربت ﴿ تقرضهم ﴾ أي تقطعهم ولا تقربهم ، بل تتركهم وتعدل عنهم أيضا ﴿ ذات الشمال ﴾ أي جهة شمال الكهف ، وكان ذلك بتصريف الله تعالى ، على منهاج خرق العادة كرامة لهم ﴿ وهم في فجوة منه ﴾ أي في متسع من الغار، يصل إليهم الهواء من كل جانب، دون أذى الشمس.

والمعنى : وترى الشمس تميل يمينا وشمالا عند طلوعها وغروبها ، ولا تحوم حولهم ، لئلا تتغير أبدانهم ، مع أنهم في مكان متسع من الكهف معرض لإصابتها ، لولا أن الله ـ تعالى ـ صرفها عنهم . و(الفجوة) هي المتسع، ومنه ما جاء في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه في صفة حجة النبي ﷺ قال: (فإذا وجد فجوة نص) أي إذا وجد متسعا في الطريق أسرع في السير.

وقد أخبرنا الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض، إذ لا قصد شرعي لنا فيه، ولا فائدة منه، وقد تكلف بعض المفسرين ببحث ذلك، واختلفوا على أقوال، لا حاصل لها، ولا طائل تحتها، ولا دليل عليها، ولا حاجة إليها، بل هي مما ينهى عنه فإن مستندها رجم بالغيب ، فلا أثارة عليها من علم، وإنما هو اتباع الظن، ولو كان فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى إليه، ولم يغفله النبي ﷺ. فإنه ما من خير لا ودلنا عليه ، وما من شر إلا وحذرنا منه ﷺ . وفي قوله تعالى: ﴿ طلعت ﴾ ﴿ تزاور ﴾ ﴿ غربت ﴾ ﴿ تقرضهم ﴾ دليل على حركة الشمس، لأن الله أسند الفعل إليها، لا إلى الأرض كما يزعم بعضهم أن الشمس ثابتة، والأرض تتحرك، وبسبب ذلك يحصل اختلاف الليل والنهار، فإن هذا يخالف ظاهر النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، كما في هذه الآيات، وأصرح منها قوله تعالى: ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾، ومن ذلك قول النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: (أتدري أين تذهب؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، ويقال لها ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾). رواه البخاري. وقال النبي ﷺ: (ما حبست الشمس على بشر قط إلا على يوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس) رواه أحمد وغيره (صحيح الجامع).

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي ما صنعه الله بهم ﴿ من آيات الله ﴾ العجيبة الدالة على كمال علمه، وواسع قدرته وحكمته، وعظيم لطفه وعنايته بأوليائه، وفيما تقدم دليل على ثبوت كرامات الأولياء، ومثله ما حصل لمريم عليها السلام، وكذا ثبتت عن بعض الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من عباد الله الصالحين أشياء كثيرة جدا من ذلك، ذكر جملة منها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في آخر كتابه " الفرقان ".

ثم قال تعالى: ﴿ من يهد الله ﴾ أي يرشده إلى الحق، ويوفقه للعمل به ﴿ فهو المهتد ﴾ في الحقيقة، الذي أصاب السعادة والفلاح، وحظي بالفوز والنجاح، في الدنيا والآخرة.

والمراد بذلك: التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة ، ولكن المنتفع بها هو من وفقه الله تعالى للاعتبار بها ، والاستبصار بها، ولهذا قال: ﴿ ومن يضلل ﴾ أي يصرفه عن الحق بسبب من نفسه ، كما تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾، ﴿ فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ أي ناصرا يهديه إلى طريق الحق، ويوفقه لسلوك سبيل الرشاد. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ﴾، وقوله تعالى: ﴿ من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾.

﴿ وتحسبهم ﴾ أي وتظنهم أيها الناظر إليهم ﴿ أيقاظا ﴾ لانفتاح أعينهم ، كأنهم ينظرون إلى من أمامهم ﴿ وهم ﴾ في الحقيقة ﴿ رقود ﴾ أي نيام مستغرقون في نومهم ، وفائدة انفتاحها لئلا يسرع إليها الفساد والبلى، فإنها إذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها، وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عينا ويفتح عينا ، ثم يفتح هذه ويطبق تلك، وهو راقد.

﴿ ونقلبهم ﴾ أي نقلب هؤلاء الفتية في رقدتهم هذه ﴿ ذات اليمين وذات الشمال ﴾ أي مرة للجنب الأيمن ، ومرة للجنب الأيسر ؛ لئلا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم، بسبب طول المكث.

قال شيخنا العثيمين ـ رحمه الله ـ في " تفسير سورة الكهف " : الصحيح أن الحكمة ليست هذه ، الحكمة من أجل توازن الدم في الجسد ، لأن الدم يسير في الجسد ، فإذا كان في جانب واحد أوشك أن ينحرم منه الجانب الأعلى ، ولكن الله بحكمته جعلهم يتقلبون . اهـ

قلت : ولا مانع من اجتماع الأمرين كحكمة في التقليب ، لاحتمالهما وعدم التعارض بينهما .

وهذه آية ومعجزة سبق إليها القرآن الكريم ، يستعملها الأطباء الآن مع المصابين بحالات الإغماء الطويلة ، وهي تقليب أجسادهم ، ذات اليمين وذات الشمال .

﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ أي بفِناء الكهف أو ببابه. وقد شملت بركتهم كلبهم أيضا ، فأصابه ما أصابهم، من النوم على تلك الحال ، وهذه من فوائد صحبة الأخيار، فإن هذا الكلب صار له ذكر وخبر وشأن، بسبب صحبته لهؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم، فزادهم الله هدى. ويؤيد هذا المعنى قول النبي ﷺ لمن قال: إني أحب الله ورسوله فقال له : (أنت مع من أحببت) متفق عليه.

ووجود الكلب على هذه الحال من عناية الله بهم ، فكما حفظهم بالتقليب من إفساد الأرض ، حفظهم عن الأعداء بهذا الكلب ، وزاد ذلك أن جعل لهم هيبة ذاتية، كما قال : ﴿ لو اطلعت عليهم ﴾ أي لو أشرفت عليهم ، فنظرت إليهم وهم على هذه الحال ﴿

لوليت منهم فرارا ﴾ أي لأعرضت عنهم، وهربت منهم ﴿ ولملئت منهم رعبا ﴾ أي خوفا وفزعا، يُرعب الصدر، ويملؤه خوفاً، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة ، لئلا يتجرأ أحد على القرب منهم، حتى يقضي الله فيهم حكمه ، وينفذ فيهم أمره .
﴿ وكذلك بعثناهم ﴾ أي أيقظناهم صحيحة أبدانهم ، سليمة عقولهم ، بعدما أنَمناهم ثلاثمائة وتسع سنين ﴿ ليتساءلوا بينهم ﴾ اللام للعاقبة ، أي لتكون عاقبتهم أن يسأل بعضهم بعضا عن مدة لبثهم، وما صنع الله بهم فيها، فيعتبروا ويستدلوا بذلك على عظيم قدرة الله تعالى، وعنايته بأوليائه المؤمنين به ، فيزدادوا يقينا ، وثباتا على ما هم فيه من التمسك بالتوحيد، والبراءة من الشرك وأهله، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم ، وأكرمهم به . وذلك لأنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم.
ولهذا ﴿ قال قائل منهم كم لبثتم ﴾ أي راقدين ﴿ قالوا ﴾ أي أجابه جماعة منهم بقولهم : ﴿ لبثنا يوما ﴾ كاملا ﴿ أو بعض يوم ﴾ وذلك أن دخولهم إلى الكهف كان في أول النهار ، واستيقاظهم كان في آخره ، فإذا كان آخر النهار من اليوم الثاني فهو يوم ، وإن كان من اليوم نفسه فهو بعض يوم. وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب ، وأنه لا يكون كذبا ، وإن جاز أن يكون خطأ.
﴿ قالوا ﴾ أي وقالت جماعة أخرى : ﴿ ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ أي بمدة لبثكم - لأنهم لم يتحققوا مقدار لبثهم - فلا طريق لكم في علمه ، وهو من الأدب الحسن في الرد على الطائفة الأولى. حيث نسبوا العلم إلى الله تعالى، ولم ينشغلوا بتزييف قولهم، وتفنيد رأيهم.
وحين علموا أن الأمر ملتبس عليهم عدلوا إلى الأهم في أمرهم، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه ﴾ وهي نقود من فضة ﴿ إلى المدينة ﴾ التي فررتم عنها. و (الوَرِق) الفضة ، كما قال النبي ﷺ : (وفي الرقة ربع العشر) رواه البخاري.
والمعنى: فخذوا في شيء آخر مما يهمكم، فأرسلوا واحدا منكم بما معكم من فضة إلى المدينة ، التي فررتم عنها ، وفي قولهم: ﴿ بورقكم هذه ﴾ إشارة إلى أن القائل كان قد أحضرها ليناولها بعض أصحابه. والآية أصل في الوكالة والنيابة، وقد أجمع المسلمون في الجملة على جوازها، قال ابن قدامة - رحمه الله - في " المغني ": وأجمعت الأمة على جواز الوكالة في الجملة، ولأن الحاجة داعية إلى ذلك، فإنه لا يمكن كل أحد فعل ما يحتاج إليه، فدعت الحاجة إليها. اهـ.
وفيها جواز خلط دراهم الجماعة والشراء بها، والأكل من الطعام بينهم بالشركة، وإن تفاوتوا في الأكل، وفيها إشارة إلى أن التأهب لأسباب المعاش - بحمل الدراهم ونحوها لمن خرج من منزله - لا ينافي التوكل على الله تعالى. بل هي من التوكل عليه - سبحانه -.
﴿ فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه ﴾ أي فليبحث عن أجود الطعام وأطيبه وألذّه ، فليأتكم بمقدار منه ، وفيه جواز طلب أطيب الطعام ، لما فيه من فوائد صحية للجسم والعقل، ولا يعد ذلك من الإسراف أو التبذير ، أو مما ينافي كمال الإيمان والتقوى، والزهد في الدنيا، فإن الله تعالى يقول : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ﴾، ويقول: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ ، ويقول: ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾، ويقول : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ﴾، وقد كان النبي ﷺ يحب العسل والحلواء، والطيب والنساء، والذراع والدباء ، ونحو ذلك من طيبات الحياة الدنيا، فنحن - المؤمنين - أولى بها من الكافرين.
وقولهم: ﴿ وليتلطف ﴾ أي وليترفق في دخول المدينة ، وفي شرائه ، ثم إيابه منها ﴿ ولا يشعرن بكم أحدا ﴾ أي ولا يجعلن أحدا يشعر بكم ، ويتفطن لمكانكم ، لئلا يقبضوا عليكم .
ثم ذكروا السبب في هذا الترفق والاستخفاء بقولهم: ﴿ إنهم ﴾ أي الكفار ﴿ إن يظهروا عليكم ﴾ أي إن يطلعوا على مكانكم الذي لجأتم إليه ، واستخفيتم فيه ، ويظفروا بكم ﴿ يرجموكم ﴾ أي يقتلوكم رجما بالحجارة ﴿ أو يعيدوكم في ملتهم ﴾ أي يدخلوكم فيها كرها ﴿ ولن تفلحوا إذا أبدا ﴾ أي إذا صرتم إلى ملتهم ولو بالكره والقسر؛ فإنكم لن تفوزوا بخير لا في الدنيا ولا في الآخرة .
وقد دلت هاتان الآيتان على جملة فوائد:
❁ منها: الحث على العلم، وعلى المباحثة فيه لأنها وسيلة إلى تحصيله، لكون الله بعثهم لأجل ذلك.
❁ ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده.
❁ ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك.
❁ ومنها: جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم يخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه، خصوصا إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك، ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين القائلين بأن هؤلاء كانوا أولاد ملوك، لكونهم أمروه بأزكى الأطعمة، التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.
❁ ومنها: الحث على التحرز والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك.
❁ ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة في دينهم، وتركهم أوطانهم في سبيل الله.
❁ ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشرك من المضار والمفاسد الداعية لبغضه وتركه، وأن هذه الطريقة هي طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين لقولهم: ﴿ ولن تفلحوا إذا أبدا ﴾.
❁ وقد استدل بهذه الآية بعض العلماء على أن العذر بالخطأ والنسيان والإكراه من خصائص أمة محمد ﷺ ، بخلاف الأمم السابقة، فلم تكن تعذر به ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ قال تعالى : قد فعلت . رواه مسلم، وقوله تعالى : ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ ، وقول النبي ﷺ : (وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) رواه الطبراني (صحيح الجامع) ، وفي رواية : (إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) رواه أحمد وابن ماجه (صحيح الجامع) . فإنه يدل على أن ذلك لم يكن مرفوعا عن الأمم السابقة، إذ لو كان مرفوعا عن الأمم كلها ما كانت هناك حاجة

للتنصيص على وضعه عن هذه الأمة بخصوصها على وجه الامتنان، لا سيما وهي أفضل الأمم، وأكرمها على الله جل وعلا. وقد صرح الله تعالى بعذرهم بالإكراه في قوله: ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾.
وفي هذه القصة دليل على أن من فر بدينه من الفتن سلمه الله منها، وأن من حرص على العافية عافاه الله، ومن آوى إلى الله آواه الله، وجعله هداية لغيره، ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾.

(سؤال وجواب)

هل هؤلاء الفتية كانوا مشركين ثم آمنوا، أو لم يكونوا قبل ذلك على الشرك، هناك احتمال، وليس في قوله: ﴿ يعيدوكم في ملتهم ﴾ دليل على أنهم كانوا قبل ذلك على الكفر؛ لأن العود إلى الشيء يراد به الدخول في الشيء، وإن لم يكن فيه من قبل ، كما في قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا ﴾ ، وقوله : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا ، قال أولو كنا كارهين ۞ قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ﴾ ، ومعلوم أن الرسل ـ ومنهم شعيب ـ عليهم الصلاة والسلام لم يكونوا من قبل على ملة الشرك ، فمعنى العود هنا الدخول في ملتهم، وإن لم يكونوا قبل فيها.
ثم قال تعالى : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾ أي كما أنمناهم وبعثناهم أطلعنا عليهم أهل المدينة ﴿ ليعلموا ﴾ أي ليعلم أهل المدينة الذين أطلعناهم على حال هؤلاء الفتية ﴿ أن وعد الله ﴾ بالبعث ﴿ حق ﴾ أي واقع لا محالة ، وذلك للتشابه بين هذه النومة الطويلة ثم الاستيقاظ، وبين الموت ثم البعث ، لأن حالهم في نومهم وانتباههم بعدها كحال من يموت ثم يبعث ، والنوم والموت يشتركان في أن كلا منهما يحصل فيه قبض للروح ، إلا أن القبض مع الموت يكون كليا ، ومع النوم جزئيا ، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ﴾وقال تعالى: ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت ﴾ أي يتوفاها ﴿ في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾.
﴿ وأن الساعة ﴾ وهي القيامة سميت بذلك لأن لها وقتا محدودا ، ولأنها تأتي بغتة في ساعة ﴿ لا ريب فيها ﴾ أي لا شك في وقوعها؛ إذ لا بد من الجزاء بمقتضى الحكمة ، كما قال تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ .
ثم أشار تعالى إلى ما كان من أمرهم بعد وفاتهم ، وعناية قومهم بحفظ أجداثهم بقوله : ﴿ إذ يتنازعون ﴾ وهو ظرف متعلق بـ﴿ أعثرنا ﴾ ، قُدّم عليه ذكر الساعة لكمال العناية بذكرها ، والمعنى: أطلعناهم عليهم حين يتنازعون ﴿ بينهم أمرهم ﴾ أي أمر البعث ، فمِن مقرٍّ به، وجاحدٍ له، فبعث الله هؤلاء الفتية ليرتفع الخلاف الحاصل في قومهم ، ويتبين الحق في أمر البعث.
﴿ فقالوا ﴾ أي قال قومهم حين توفى الله أصحاب الكهف ﴿ ابنوا عليهم ﴾ أي على باب كهفهم ﴿ بنيانا ﴾ لئلا يصل الناس إليهم ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ هذه جملة معترضة ، إما من كلام الله تعالى ردا على الخائضين في حديثهم ، أو هي من كلام المتنازعين في عهدهم ، كأنهم تذاكروا أمرهم العجيب ، وتحاوروا في أحوالهم ، ومدة لبثهم ، فلما لم يهتدوا إلى ذلك أحالوا حقيقة نبئهم إلى الله تعالى.
﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم ﴾ وهم أصحاب الغلبة ونفوذ الكلمة من الفريقين المتنازعين ﴿ لنتخذن عليهم مسجدا ﴾ أي نصلي فيه ، تبركا بهم وبمكانهم ، والظاهر من هذا أنهم كانوا مسلمين، ولكنهم كانوا على بدعة؛ لأن النبي ﷺ قال : (لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد) يحذر ما صنعوا . متفق عليه . وفي الصحيحين أيضا قال النبي ﷺ : (إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق يوم القيامة) .
وروى أحمد : (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، ومن يتخذ القبور مساجد).
والسبب في ذلك هو أن البناء على قبر النبي والولي مدعاة للإقبال عليه، والتضرع إليه ، ثم دعائه والاستغاثة به، والذبح والنذر له، والطواف والتمسح به، طلبا للبركة منه ، ونحو ذلك من العبادات، التي لا تنبغي إلا لله، ففيه فتح لباب الشرك ، وتوسل إليه بأقرب وسيلة ، وهل أصل عبادة الأصنام إلا ذلك ! كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾ قال: هؤلاء كانوا قوما صالحين في قومهم، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم، فهؤلاء لما قصدوا الانتفاع بالموتى، قادهم ذلك إلى عبادة الأصنام.
وبعد أن قص الله علينا خبر أصحاب الكهف ونزاع المتخاصمين من قومهم فيهم، شرع يقص علينا ما دار في عهد النبي ﷺ من الخلاف في عددهم فقال:
﴿ سيقولون ﴾ أي سيقول الخائضون في قصتهم على عهد النبي ﷺ الذين لا علم لهم بالحقيقة هم ﴿ ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون ﴾ أي تقول طائفة أخرى منهم: هم ﴿ خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ﴾ أي ظنا خاليا عن اليقين ، وأصل (الرجم) الرمي ، فهم يرمون بهذه الأقوال بلا علم ﴿ ويقولون ﴾ أي تقول طائفة ثالثة: هم ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ ولم يتبع هذا القول بقوله: ﴿ رجما بالغيب ﴾ ، ففيه إشارة إلى صحته ، فهو نظير قوله تعالى: ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ ، فلما أنكر قولهم : ﴿ إن الله يأمر بالفحشاء ﴾ ، وسكت عن قولهم : ﴿ وجدنا عليها آباءنا ﴾ دل ذلك على صحته ، وقد استدل من قال: إنهم سبعة بأن الله لم يذكر إلا ثلاثة أقوال قيلت فيهم ، ولو قيل غيرها لأشير إليه ، وأن أقصى ما قيل في عددهم أنهم سبعة ، و(فتية) من جموع القلة، التي تدل على أنهم كانوا أقل من عشرة.
وقوله : ﴿ قال قائل منهم كم لبثتم ﴾ هذا واحد ، وقوله : ﴿ قالوا لبثنا ﴾ هذا جمع وأقله ثلاثة ، ثم قوله عن الطائفة الأخرى : ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ جمع أيضا، وأقله ثلاثة، فصاروا سبعة ، وهو استدلال لطيف، ولهذا لم يدخله في قوله: ﴿ رجما بالغيب ﴾. وهذا من الخلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس دينية ولا دنيوية، ولهذا قال تعالى:

﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ أي بحقيقة عددهم هل هم كذا أو كذا، وفي هذا إرشاد للعباد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا حاجة للخوض في مثل ذلك بلا علم، فإن أطلعنا الله على أمر قلنا به، وإلا توقفنا فيه، ولم نجزم فيه بشيء، ورددنا علمه إلى الله تعالى.
﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ أي عدد قليل من الناس ممن أطلعهم الله على ذلك ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : أنا من ذلك القليل. وكان يقول: بأنهم سبعة وثامنهم كلبهم.
وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ هذا القصة بهذا التفصيل المحكم، وهذه الدقة المتناهية، نهى رسوله ﷺ عن شيئين وهما: المراء في أمرهم، والاستفتاء في شأنهم، فقال تعالى : ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهرا ﴾ (المراء) هو الجدال والخصام، و(الظاهر) هو غير المتكلف ولا المتعمق فيه. والمعنى: لا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف، ولا تخاصمهم فيه، اللهم إلا جدالا ظاهرا غير متعمق فيه ، على قدر ما تعرض له التنزيل الكريم ، فتقص عليهم ما أوحى الله إليك فيهم فحسب ، ولا تزد عليه ، من غير تجهيل لهم ، ولا تعنيف في الرد عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة.
ولهذا قال: ﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾ أي ولا تسأل أحدا منهم عن نبئهم وقصتهم، لا سؤال متعنت لترد عليه قوله ، ولا سؤال مسترشد لأن الله تعالى قد أوحى إليك بالحق في أمرهم ، وهم ليس عندهم إلا الرجم بالغيب ، وفي هذا دلالة على أن المهم ليس هو معرفة العدد، بل المهم الاعتبار بهذه القصص، بما ينفع عقولنا ويصلح قلوبنا، ويهذب أخلاقنا ، وفيها دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم، ويؤكد ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله ، تقرؤونه محضا لم يشب ! وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا : هو من عند الله؛ ليشتروا به ثمنا قليلا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم أحدا قط سألكم عن الذي أنزل إليكم) فانظر إلى هذه الموعظة الرائعة البليغة من هذا الحبر الكبير رضي الله عنه وأرضاه.
ثم شرع ـ تعالى ـ يرشد نبيه ﷺ ـ وكذا أمته لأنه أسوتهم وقدوتهم ـ إلى بعض الآداب، وهي أنه إذا أراد أن يخبر عن فعل شيء في المستقبل فعليه أن يقرن قوله هذا بمشيئة علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون.
فقال تعالى: ﴿ ولا تقولن لشيء ﴾ تريد أن تفعله ﴿ إني فاعل ذلك غدا ﴾ أي فيما يستقبل من الزمان على وجه الجزم والوقوع قطعا ، فـ(الغد) هنا ليس المراد منه اليوم الذي يلي يومك فقط ، ولكن المراد منه يومك المستقبل ولو بَعُد ، نظير قوله تعالى: ﴿ اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾، أي يوم القيامة.
﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ أي إلا أن يأذن الله لك في ذلك ، أو إلا أن تقرن قولك هذا بالمشيئة ، فتقول : إني فاعل ذلك غدا إن شاء الله، لما في ذلك من الإخبار بالغيوب المستقبلية، التي لا يدري هل يفعلها أو لا، لأنه ربما يموت قبل مجيء الغد ، وربما يبقى ولكن يعيقه عائق عن فعله ، فإذا لم يقل: إن شاء الله صار في ظاهر أمره كاذبا في ذلك الوعد، ونفر الناس منه. ولما في ذلك من استقلال العبد بمشيئته، وفيه محذور؛ لأن المشيئة كلها لله، كما قال تعالى: ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾.
ثم قال تعالى: ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ أي إذا نسيت أن تقول: إن شاء الله فقلها إذا ذكرت، سواء طال الفصل أم قصر ، وهذا الاستثناء للتخلص من الإثم ، لا لتغيير الحكم.
﴿ وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا ﴾ أي إذا نسيت شيئا فاذكر ربك ، وذلك بأن تقول : عسى أن يهدين ربي لشيء آخر بدل هذا المنسي يكون أقرب منه رشدا ، وأدنى منه خيرا ومنفعة .
وخلاصة ذلك: أنك إذا أردت أن تَعِدَ بفِعْل شيء في المستقبل، فلا تقطع به، ولا تجزم بفعله، بل اقرنه بمشيئة الله تعالى، لأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وإذا نسيت أن تقرنه بالمشيئة حال الوعد فاذكره إذا زال النسيان، وتذكرت ذاك الأمر، واسأله تعالى أن يوفقك لما هو خير وأنفع مما فاتك ذكره.
وقد ذُكِر في سبب نزول هذه الآية الكريمة أن اليهود قالوا لقريش : سلوا محمدا عن الروح ، وعن رجل طواف في الأرض (يعنون ذا القرنين) ، وعن فتية ، لهم قصة عجيبة في الزمان الماضي (يعنون أصحاب الكهف) ، فقال لهم رسول الله ﷺ : (سأخبركم غدا عما سألتم عنه) ولم يقل: إن شاء الله. فلبث عنه الوحي مدة ، قيل : خمس عشرة ليلة وقيل غير ذلك . فأحزنه تأخر الوحي عنه ، ثم أنزل عليه الجواب عن الأسئلة الثلاثة، قال في الروح: ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾، وقال في الفتية: ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ إلى آخر الآيات في بيان قصتهم ، وقال في الرجل الطواف : ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا ﴾.
وقد عاتب الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ في هذه الآية على عدم قوله: إن شاء الله، لما قال لهم: سأخبركم غدا. كما عاتب نبيه سليمان عليه السلام من قبل على عدم قوله: إن شاء الله أيضا، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه قل: إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن جميعا، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وايم الذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون).

(مسألة)

هل الاستثناء في اليمين ينفع ولو بعد زمن طويل؟
اشتهر على ألسنة العلماء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه استنبط من هذه الآية الكريمة: ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ أن الاستثناء يصح تأخيره عن المستثنى منه ولو بعد زمن طويل.
والتحقيق ـ الذي لا شك فيه ـ أن الاستثناء لا يصح إلا مقرونا بالمستثنى منه، حقيقة ـ بأن لا يفصل بينهما فاصل ـ ، أو حكما ـ بأن فصل بينهما فاصل لا يضر كسعال وعطاس، ومراجعة في الكلام نفسه ـ كما في حديث العباس وقوله: (إلا الإذخر يا رسول

الله. فقال: إلا الإذخر). ولو كان الاستثناء المتأخر يصح مطلقا لم يكد يتقرر عقد ولا يمين ولا نذر ولا نحو ذلك، لاحتمال طروء الاستثناء عليه بعد ذلك. وهو في غاية البطلان كما ترى.
وقد حكي عن المنصور أنه بلغه أن أبا حنيفة - رحمه الله - يخالف مذهب ابن عباس المذكور، فاستحضره لينكر عليه ذلك، فقال له أبو حنيفة: هذا يرجع عليك، إنك تأخذ البيعة بالأيمان، أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك ؟! فاستحسن كلامه ورضي عنه.
قال ابن العربي المالكي - رحمه الله -: سمعت فتاة ببغداد تقول لجارتها: لو كان مذهب ابن عباس صحيحا في الاستثناء ما قال الله تعالى لأيوب: ﴿ وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ﴾ بل يقول له: استثن بـ(إن شاء الله).
أما ما نقل عن ابن عباس في ذلك فمراده أن الاستثناء للتخلص من الإثم فيما إذا نسي أن يقول: (إن شاء الله) عند الإخبار بفعل أمر مستقبل. هذا هو مراده كما جزم به الطبري وغيره، وهذا لا محذور فيه ولا إشكال. لا أنه يصح به تغيير الحكم في اليمين ونحوه. انتهى ملخصا بتصرف من " أضواء البيان " للشنقيطي - رحمه الله -.
ثم شرع - تعالى - يبين ما أجمل في قوله : ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ﴾ فقال : ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا ﴾ فـ(سنين) عطف بيان لثلاثمائة ، و(تسعا) مفعول به ، أي تسع سنين لدلالة ما قبله عليه ، والجمهور على أن هذا إخبار من الله تعالى أنهم لبثوا في كهفهم هذه المدة.
قال تعالى: ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ أي أعلم منكم ومنا بمقدار لبثهم ، ومدة مكثهم في الكهف ، فلا تتّبعوا ما ليس لكم به علم ، فمرد الغيب إليه سبحانه ، ولهذا قال : ﴿ له غيب السموات والأرض ﴾ أي ما غاب فيهما، وما خفي من أحوال أهلهما فهو العالم وحده بذلك، ولهذا قدم الخبر (له) للدلالة على الحصر. ونظيرها قوله تعالى: ﴿ ولله غيب السموات والأرض ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾، وقوله: ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾، وقوله: ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾، وقد بين في موضع آخر أنه يطلع من شاء من رسله على ما يشاء من أمور الغيب، كما في قوله تعالى: ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾.
ثم قال تعالى: ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ هذه إحدى صيغتي التعجب، وهي (أَفعِلْ به)، والصيغة الثانية (ما أَفْعَلَه)، أي ما أبصرَه - سبحانه - بكل موجود ، وما أسمعَه بكل مسموع.
والمعنى: ما أعظم بصره وسمعه سبحانه - وتعالى - فلا يخفى عليه شيء من المرئيات ولا من المسموعات مهما دق ولطف ، وفيه إشارة إلى أنه - سبحانه - أعلم من غيره بأصحاب الكهف ، لأنه إن كان من جهة الغيب فهو مختص بالله ، وإن كان من جهة السمع فهو أسمع ، وإن كان من جهة البصر فهو أبصر من غيره ، وعليه فاتَّبِع ما أوحي إليك من ربك في شأنهم ، ولا تسمع لقولهم. وقد دلت هذه الآية على إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى على الوجه اللائق به جل وعلا، كما في قوله تعالى: ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾. وقوله تعالى: ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾، وقوله: ﴿ لقد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾، وقوله: ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير ﴾. وقوله: ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ﴾، ونحوها من الآيات. روى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها وما أسمع ما تقول فأنزل الله: ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ إني لفي الحجرة وإنه ليخفى علي بعض حديثها). ومن لازم الإيمان بهاتين الصفتين المراقبة لله عز وجل، في كل ما يأتي الإنسان ويذر، من الأقوال والأفعال والعقائد والنيات. وفي الآية دليل على إثبات صفة العجب لله - جل وعلا -، على الوجه اللائق به، من غير تمثيل ولا تكييف، ويؤكد ذلك قراءة: ﴿ بل عجبتُ ويسخرون ﴾، بتاء المتكلم، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ ، وقول النبي ﷺ: (عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل) رواه البخاري، وفيه أيضا: (لقد عجب الله من فلان وفلانة) ورواه مسلم بلفظ: (قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة).
ثم قال تعالى: ﴿ ما لهم ﴾ أي ليس لأهل السموات والأرض ﴿ من دونه ﴾ أي من دون الله جل وعلا ﴿ من ولي ﴾ أي من أحد يتولى أمرهم ، فينصرهم بأن يجلب لهم نفعا، أو يدفع عنهم ضرا من دون الله تعالى ، فالولاية المنفية هنا هي الخاصة.

(أنواع الولاية)

فالولاية نوعان:
الأولى: عامة لجميع الخلق، ومقتضاها الخلق، والملك، والتدبير، والقهر، كقوله تعالى: ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا ﴾ أي الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم ﴿ إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾.
والثانية: خاصة بالمؤمنين، ومقتضاها المحبة والنصر والتأييد والمعونة كقوله تعالى: ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾، وقال تعالى: ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾.

(بِمَ تُنالُ ولاية الله)

ولاية الله تعالى للعبد هي أعظم مطلوب، وأجل مرغوب، إذ بها تتحقق للعبد السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، وقد بين سبحانه وتعالى الأسباب التي تنال بها ولايته، والأوصاف التي يستحق بها العبد محبته ونصرته، فقال جل وعلا: ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾، وقال تعالى : ﴿ والله ولي المتقين ﴾.
ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (من كان مؤمنا تقيا كان لله وليا). فليست الولاية بكبر العمامة، ولا بعرض الأكمام، ولا بخوارق العادات، فإن ذلك يشترك فيه البر والفاجر، والمؤمن والفاسق، لأن المعجزات وخوارق العادات قد تكون من

الجن والشياطين، تعين بها أهل الكفر والشرك والضلال، من الكهنة والمشعوذين، وقد تكون من أرحم الراحمين. يؤيد بها عباده المؤمنين، وأصفياءه المتقين، فليست ـ مطلقا ـ معيارا في معرفة أولياء الله جل وعلا.
ثم قال تعالى : ﴿ ولا يشرك في حكمه ﴾ أي الكوني ولا الشرعي ﴿ أحدا ﴾ من الخلق، كما قال تعالى: ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾، أي ليس له إلا هو ، كقوله : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ ، أي ليس الحكم إلا لله ، وقوله : ﴿ فالحكم لله العلي الكبير ﴾ أي لا لأحد غيره. وقوله: ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾.
والمعنى: لا يشرك ـ تعالى ـ في حكمه أحدا من الخلق، كائنا من كان، بل الحكم له وحده ـ جل وعلا ـ ولا حكم لغيره البتة، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه الله، والقضاء ما قضاه، لا معقب لحكمه، ولا راد لفضله، ولا مانع لقضائه.
واعلم أن الحكم بغير ما أنزل الله جرم كبير، وإثم عظيم، قال تعالى: ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾، وقال تعالى: ﴿ أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا ﴾، وهو تارة يكون كفرا أكبر، وتارة يكون كفرا دون كفر، فيكون ظلما وفسقا، كما قال تعالى: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾، وفي الآية الثانية: ﴿ الظالمون ﴾، وفي الآية الثالثة: ﴿ الفاسقون ﴾.

(فائدة)

قال محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ في " تفسيره ": واعلم أن قصة أصحاب الكهف وأسماءهم وفي أي محل من الأرض كانوا كل ذلك لم يثبت فيه عن النبي ﷺ شيء زائد على ما في القرآن، وللمفسرين في ذلك أخبار كثيرة إسرائيلية أعرضنا عن ذكرها لعدم الثقة بها.
وقال في موضع آخر: وما يذكره المفسرون من الأقوال في اسم كلبهم، فيقول بعضهم: اسمه قطمير، ويقول بعضهم: اسمه حمران، إلى غير ذلك لم نطل به الكلام لعدم فائدته. ففي القرآن العظيم أشياء كثيرة لم يبينها الله لنا ولا رسوله، ولم يثبت في بيانها شيء والبحث عنها لا طائل تحته، ولا فائدة فيه. وكثير من المفسرين يطنبون في ذكر الأقوال فيها بدون علم ولا جدوى، ونحن نعرض عن مثل ذلك دائما، كلون الكلب واسمه، وكالبعض الذي ضرب به القتيل من بقرة بني إسرائيل، وكاسم الغلام الذي قتله الخضر، وكخشب سفينة نوح، من أي شجر هو؟ وكم طول السفينة وعرضها، وكم فيها من الطبقات إلى غير ذلك مما لا فائدة في البحث عنه، ولا دليل على التحقيق فيه. اهـ.
وبعد أن ذكر سبحانه قصة أصحاب الكهف وضمنها كتابه الكريم ـ مما يدل على أنه وحي من علام الغيوب ـ أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالمواظبة على قراءته ودرسه، والاجتهاد في العمل به ، وألا يكترث بقولهم : ﴿ ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴾ ، ثم ذكر ـ سبحانه ـ ما يلحق الكافرين يوم القيامة من النكال والعذاب الأليم ، جزاءً وفاقا على كفرهم وعصيانهم، وما ينال المتقين من النعيم المقيم جزاءً من أرحم الراحمين، على إيمانهم وصالح أعمالهم.
فقال تعالى: ﴿ واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك ﴾ التلاوة لها معنيان : المعنى الأول : القراءة، وهو التبليغ باللسان ، والمعنى الثاني : الاتباع، وهو الامتثال بالعمل ، فعلا للأوامر ، واجتنابا للنواهي ، وتصديقا للأخبار ، والآية تشمل المعنيين، كقوله تعالى: ﴿ الذين يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾، وقوله: ﴿ اتل ما أوحي إليك من الكتاب ﴾، وقوله: ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾.
وقوله تعالى : ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي لا مغير ولا محرف لها ، والمقصود كلماته الكونية ، وحكمه القدري ، كقوله تعالى: ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾، وقد بين تعالى أنه هو وحده الذي يبدل ما شاء منها، كما في قوله: ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر ﴾، وقوله: ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾، وقوله: ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ﴾.
ويحتمل شموله كلماته الشرعية أيضا، ولكنه خاص بالقرآن الكريم، الكتاب الذي تكفل الله بحفظه من التغيير والتحريف والتبديل، كما قال ـ سبحانه ـ ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ، بخلاف التوراة والإنجيل فإن الله تعالى وكل حفظهما لأهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾، وقد أخبر ـ تعالى ـ بأن اليهود والنصارى لم يقوموا بحفظه، بل حرفوا وبدلوا وغيروا، فقال تعالى: ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ ، وقال: ﴿ يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ﴾.
وقوله تعالى: ﴿ ولن تجد من دونه ملتحدا ﴾ ، أي ملجأ تعدل إليه إن هممت بذلك، ولا معاذا تعوذ به، كقوله تعالى: ﴿ قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ﴾، وأصل (اللحد) الميل والانحراف ، ومنه المُلحِد، وهو المائل عن دين الحق، واللَّحْد في القبر، وهو الشق المائل جهة القبلة، ومنه قوله تعالى: ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا ﴾، أي يميلون بها عن وجه الحق والصواب.
فإذا تعين أنه وحده الملجأ في كل الأمور، تعين أن يكون هو وحده المعبود المرغوب إليه في السراء والضراء، المفتقَر إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب.
والمعنى : بلغ ما في كتاب ربك، ومنه خبر هؤلاء الفتية ، وامتثل ما جاءك فيه ، فإنه لا أحد يستطيع أن يغير ما فيه من وعد لأهل طاعته ، ووعيد لأهل معصيته ، فإن لم تفعل فنالك ما أوعد به من خالف أمره، فإنك لن تجد لك ملجأ تلجأ إليه ، ولا ركنا تعتصم به ، لأن قدرة الله محيطة بك، وبجميع خلقه ، لا يقدر أحد على الفرار منه ، ولا الهرب مما أراد الله به.
ثم قال تعالى: ﴿ واصبر نفسك ﴾ أي احبسها وثبتها ﴿ مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ أي يعبدونه ويدعونه أوَّل النهار وآخره ، كعمار وصهيب ، وبلال وابن مسعود وأضرابهم ﴿ يريدون وجهه ﴾ أي يبتغون بذلك ذاته ومرضاته سبحانه وتعالى ، لا

يريدون عرضا من الدنيا ، ولا شيئا من لذاتها وشهواتها ، فإن ما عند الله خير وأبقى . وفي الآية إثبات صفة الوجه لله - جل وعلا - على الوجه اللائق به، من غير تمثيل ولا تكييف، ولا تعطيل ولا تحريف، كما قال تعالى: ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾. ويؤيده قوله تعالى: ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾، وقوله: ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾، وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات ، فقال : (إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه).

ثم قال تعالى: ﴿ ولا تعد عيناك عنهم ﴾ أي ولا تجاوز نظرك، ولا تصرف بصرك ونفسك بالإعراض عن هؤلاء ﴿ تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ أي تطلب وترغب في مجالسة الأشراف والأغنياء ، وصحبة أهل الدنيا ؛ تألفا لقلوبهم، لعلهم يؤمنون بك ، كقوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى، ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾. وقوله تعالى: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾، وقوله: ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره ﴾.

ثم أكد - سبحانه - هذا النهي بقوله : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ أي من جعلنا قلبه غافلا، بسبب إعراضه عن الحق لَمَّا جاءه ، كما قال تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾، فمثل هذا نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به، كما قال تعالى: ﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾.

ولهذا قال هنا : ﴿ واتبع هواه ﴾ أي ما تهواه نفسه ، لا ما أمره به ربه، واتباعه هواه هو اتباعه ما تميل إليه نفسه الأمارة بالسوء وتهواه من الشر كالكفر والمعاصي ﴿ وكان أمره فرطا ﴾ أي متروكا ومعطلا ومضيعا بعيدا عن الحق، وفيه إشارة إلى أن الباعث لهم على طلب طرد المؤمنين هو غفلة قلوبهم عن الحق وأهله ، واتباع الهوى ، ولو كانوا متيقظين منتبهين لحقيقة الأمر، راغبين في الحق ما طلبوا ذلك.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماما للناس، هو من امتلأ قلبه بمحبة الله وفاض ذلك على لسانه فلهج بذكر الله، واتبع مراضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه، فهذا حقيق بأن يتبع ويجعل إماما.

ودلت أيضا على استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار، لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله دل ذلك على أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به، ويرغب فيه.

وفي قوله: ﴿ من أغفلنا قلبه ﴾ دليل على ثبوت مشيئة الله تعالى في أفعال العباد، فما يعرض للعبد من غفلة ومعصية إنما هو بمشيئة الله تعالى، إذ لا يكون في ملكه إلا ما يشاء، كما هو معتقد أهل السنة والجماعة، ويدل على ذلك آيات ، كقول تعالى: ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾، وقوله: ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾، وقوله: ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم ﴾. وقوله: ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾، ونحوها من الآيات الدالة على أن كل خير وشر لا يقع إلا بمشيئة خالق السموات والأرض، خلافا لما يزعمه أهل البدع والضلال من أن العبد مستقل بقدرته، منفرد بإرادته ، دون مشيئة الله تعالى، فكل ذلك مما لا يخفى رده وبطلانه.

وسبب نزول هذه الآية: أن قوما من أشراف المشركين، رأوا النبي ﷺ جالسا مع خباب وصهيب وبلال ونحوهم من فقراء الصحابة وضعفائهم ، فسألوه أن يقيمهم عنه إذا حضروا ، وفي رواية أنهم قالوا له : إنا لنستحي أن نجالس فلانا وفلانا وفلانا ، فجانِبْهم وجالس أشراف العرب ، فنزلت : ﴿ واصبر نفسك ﴾ ، وروى مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾. ففي هذه الآية نهي عن طردهم ، وفي قوله : ﴿ واصبر نفسك ﴾ أمر بمجالستهم. وعدم الالتفات إلى غيرهم، فإن هذه السنة عادة في الكفار ، كما قال قوم نوح له عليه السلام : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾، وقال: ﴿ ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ﴾ ، وقال: ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون ﴾.

وخلاصة ذلك : النهي عن احتقارهم ، وصرف النظر عنهم إلى غيرهم ، ولو كانوا فقراء مستضعفين ، وليسوا من أشراف القوم ، فيكفيهم شرفا إيمانهم بالله جل وعلا ، واتباعهم لرسول الله ﷺ ، وهل الشرف والكرم إلا ذلك ! ولو كان غيرهم من الأشراف والأغنياء فإنه لا شرف ولا كرامة مع الشرك والكفر ، كما قال تعالى : ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ ، وقال : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وبعد أن أمر الله رسوله ﷺ أن لا يلتفت إلى قول أولئك الأغنياء الذين قالوا : إن طردت هؤلاء الفقراء آمنا بك واتبعناك ، أمره أن يقول لهم ولغيرهم على وجه التهديد والوعيد:

﴿ وقل الحق من ربكم ﴾ أي هذا هو الحق الذي جئتكم به من عند ربكم، في غاية الوضوح والبيان، قد تبين به الهدى من الضلال، والرشد من الغي، فلم تبق فيه شبهه ﴿ فمن شاء ﴾ منكم أن يؤمن به ﴿ فليؤمن ﴾ كسائر المؤمنين ، ولا يتعلل بما لا يصح أن يكون عذرا له ﴿ ومن شاء ﴾ منكم أن يكفر به ﴿ فليكفر ﴾ ولست بطاردهم لأجل أهوائكم ، فإن الله تعالى جعل للناس الخيار في ذلك ، ولم يكرههم على شيء منه ، كما قال تعالى: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولو شاء ربك لآمن في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾.

والأمر في قوله تعالى: ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ للتهديد والتخويف لا التخيير والإباحة، وهو أسلوب عربي فصيح كقوله تعالى ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾، والدليل على إرادة التهديد ما ذكر بعده من جزاء الكفرة الظالمين.
ففي الآية من التهديد ، وإظهار الاستغناء عن متابعتهم ، وعدم المبالاة بهم ولا بإيمانهم ، وجودا وعدما ما لا يخفى ، وكأنه تعالى قال له : قل لهم يا رسول الله: إنني في غنى عن متابعتكم، وإنني لا أبالي بكم ولا بإيمانكم ، فأمر ذلك إليكم ، وبيد الله التوفيق والهداية ، والخذلان والغواية ، وهو سبحانه لا ينفعه إيمان المؤمنين ، ولا يضره كفر الكافرين، كما قال تعالى : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها ﴾ أي عليها ، كقوله تعالى : ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ وقوله: ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا ﴾ أي ولكنهم يضرون أنفسهم بتعريضها لسخط الله وعقوبته، ولهذا قال بعدها: ﴿ يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم ﴾، وفي الحديث القدسي : (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) رواه مسلم.
ففي هذه الآية رد على هؤلاء المشركين الذين طلبوا من النبي ﷺ طرد فقراء المؤمنين ليجالسوه ويتبعوه ، فقيل لهم : إيمانكم إنما يعود عليكم ، فلا نبالي به حتى نطردهم لذلك ، بعد ما تبين الحق وظهر .
وبعد هذا التهديد الشديد للسامعين بأن يختاروا لأنفسهم ما يجدونه غدا عند الله تعالى أتبعه بذكر الوعيد على الكفر والمعاصي ، والوعد على الإيمان والعمل الصالح.
فقال تعالى : ﴿ إنا أعتدنا ﴾ أي أعددنا وهيأنا وجهزنا ﴿ للظالمين ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بوضع الشيء في غير موضعه اللائق به ، وذلك باختيارهم الكفر والعصيان ، على الطاعة والإيمان ﴿ نارا ﴾ أي عظيمة ﴿ أحاط بهم سرادقها ﴾ أي لهيبها المستعر ، كإحاطة الخيمة بأهلها ، فلا محيص عنها ، ولا مفر منها، وفي الآية إطلاق الظلم على الكفر ومنه قوله تعالى: ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾، ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾. فدلت هذه الآية على أن النار قد أحدقت بهم من كل جانب، ومثلها في المعنى قوله تعالى: ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقها غواش ﴾، وقوله: ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون ﴾، وقوله: ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون، بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ﴾.
﴿ وإن يستغيثوا ﴾ أي وإن يطلب هؤلاء الظالمون الغوث من شدة العطش ، وحرارة القلب ، ولهيب الباطن ، كما قال في سورة الأعراف : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء ، أو مما رزقكم الله ﴾ ، ﴿ يغاثوا بماء كالمهل ﴾ وهو الحديد المذاب ، أو عكر الزيت المسود المتعفن ﴿ يشوي الوجوه ﴾ إذا قدم إليهم ليشربوا منه نضجت جلود وجوههم ، وانشوت واحترقت وتساقطت من شدة حرارته ﴿ بئس الشراب ﴾ (بئس) ومثله (ساء) من أفعال الذم ، أي بئس الشراب ذلك الماء الذي يغاثون به، فهو كقوله تعالى : ﴿ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾، وقوله: ﴿ لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾، و(الحميم) هو الماء المتناهي في الحرارة، وفي آية أخرى: ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ ﴾، فما أقبح هذا الشراب الذي هو كالمهل ، وماء الحميم والصديد لأنه لا يطفئ حرارة ، ولا يسكن لهبا ، ولا يروي غليلا ، بل يزيد من حرارتها وألمها إلى أقصى غاية، كما قال تعالى: ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ ، وقال : ﴿ زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يكسبون ﴾.
ثم قال : ﴿ وساءت ﴾ أي هذه النار ﴿ مرتفقا ﴾ أي متكأ ، ومكانا يرتفقون فيه ، وأصل (الارتفاق) نصب المرفق تحت الخد والاتكاء عليه ، أي وما أسوأ هذه النار منزلا ومكانا يقيمون فيه ، كقوله تعالى : ﴿ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾.
ثم ثنَّى ـ سبحانه ـ بذكر السعداء وجزائهم فقال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ بما يجب الإيمان به من الحق ﴿ وعملوا ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات ﴾ وهي ما أمروا بها من واجبات ومستحبات ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ بالإيمان الخالص، والعمل الصالح ، أي لا نجعل أعمالهم تذهب ضياعا ، وتترك سدى ، بل نجزيهم عليها أفضل الجزاء ، فلا ينقصهم جل وعلا من حقهم قطميرا ولا نقيرا ، بل يضاعف لهم الثواب كرما منه وإحسانا ، كما قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ ، وقال : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ ، وقال : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ ، وفي الحديث : (إذا هم العبد بالحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة) متفق عليه.
ثم بين ـ سبحانه ـ جزاءهم وما أعده لهم جزاء إحسانهم، كما وعدهم بقوله : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ فقال : ﴿ أولئك لهم جنات ﴾ جمع جنة، وهي البستان كثير الأشجار ، سميت بذلك لاجتنان أرضها، واستتارها بظل الشجر ، ولاستتار من بداخلها بين أشجارها ، وأصل مادة : (ج ن ن) تدور على الستر كما في الجِنّ ، والجانّ (وهي الحية) كما في قوله : ﴿ كأنها جانٌّ ﴾ سميت بذلك لسرعتها وخفتها ، والمِجَن ، والجُنَّة ، والمجنون ، والجَنين ، والْجَنان (أي القلب)، ومنه أيضا : ﴿ جنَّ عليه الليل ﴾ أي أظلم.
وقوله: ﴿ جنات عدن ﴾ أي جنات الإقامة الدائمة ، خالدين مخلدين فيها ، لا يبغون عنها حولا ، وأصل (العدن) الإقامة ومنه المعدن، سمي بذلك لإقامته واستقراره في باطن الأرض ﴿ تجري من تحتها ﴾ أي من تحت قصورها وأشجارها وأهلها ﴿ الأنهار ﴾ جمع نَهَر ، وأنهارها أربعة ، ذُكِرتْ في قوله تعالى : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ أي غير متغير اللون والرائحة ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ بالحموضة والعفونة ﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ لا غول فيها ولا هم عنها ينزفون ﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ أي نقي غير مغشوش.
ثم قال تعالى: ﴿ يحلون فيها ﴾ أي يجعل الله لهم في الجنة الحلي يحليهم به ، ويزينهم به ، ثم بين نوعه بقوله : ﴿ مِن أساور من ذهب ﴾ (أساور) جمع سوار، وهو ما يحاط بالساعد من الحلي ، أي يلبسون في الجنة أساور من ذهب تكون حِلْيَة لهم ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : (تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء) ، وظاهر هذه الآية أن الحلية من

ذهب فقط ، وجاء أنها من فضة كما في قوله تعالى : ﴿ وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ﴾ ، وجاء أنها من ذهب ولؤلؤا ، كما في قوله تعالى : ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير ﴾ فيعلم من هذا أنهم يحلون بالأساور الثلاثة فيكون في يد الواحد منهم سوار من ذهب ، وآخر من فضة ، وآخر من لؤلؤ ، وهذا غاية في الحسن والجمال، ويحتمل أن بعضهم يحلى بذهب والبعض الآخر يحلى بفضة، والأول أحسن، هذا بالنسبة للحلي.

أما ثيابهم فقد أشار إليها بقوله : ﴿ ويلبسون ثيابا خضرا ﴾ خصت الخضرة بثيابهم لأنها أحسن الألوان ، وأكثرها طراوة ، وأرفق بالأبصار ، وقد قيل : ثلاثة مُذْهِبَة للحَزَنْ : الماء والخضرة والوجه الحَسنْ ﴿ من سندس ﴾ وهو ما رَقَّ من الحرير ﴿ وإستبرق ﴾ وهو ما غلظ منه ، والمعنى : أنهم يلبسون رقيق الحرير وغليظه ، وهذا لباس المترفين في الدنيا ، ومنتهى ما يكون لأهل النعيم فيها ﴿ متكئين فيها ﴾ أي في هذه الجنة ﴿ على الأرائك ﴾ جمع أريكة ، وهي السرر الفخمة المزينة بالستور، على هيئة المتنعمين، مما يدل على منتهى راحتهم ، وكمال نعيمهم فيها، وخص الاتكاء بالذكر لأنه هيئة المتنعمين والملوك على أسرتهم.

﴿ نعم الثواب ﴾ أي هذا الثواب ، وهو الجنات وما فيها من نعيم مقيم ، جزاء من آمن وعمل صالحا ، بخلاف جزاء الكفار والظالمين فإنه بئس الثواب ﴿ وحسنت ﴾ أي هذه الجنة ﴿ مرتفقا ﴾ أي متكئا ومنزلا ، ومستقرا ومقاما ، كما قال تعالى : ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما ﴾. نسأل الله تعالى أن يمن علينا بذلك بفضله وإحسانه، فإنه أهل الكرم والجود والمغفرة. وأصل (الثواب) مطلق الجزاء، خيرا كان أو شرا، والغالب إطلاقه على جزاء الخير، ومن إطلاقه على الشر قوله تعالى: ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه ﴾، وقوله: ﴿ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾.

بعد أن أمر الله نبيه بصبر نفسه وحبسها مع فقراء المؤمنين ، وعدم طاعة أولئك الأغنياء من المشركين الذين طلبوا منه طرد ضعفاء المسلمين قفَّى على ذلك بمَثَلٍ يستبين منه أن المال لا ينبغي أن يكون موضع فخار ؛ لأنه ظل زائل، وكثيرا ما يصير الفقير غنيا، والغني فقيرا، كما قال تعالى : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ ، وقال: ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾، وإنما الذي يجب أن يكون موضعا للتفاخر، وعمدةً في التفاضل هو الإيمان بالله والعمل الصالح . فقال تعالى :

﴿ واضرب لهم ﴾ أي لهؤلاء المشركين الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴿ مثلا رجلين ﴾ مؤمن وكافر ﴿ جعلنا لأحدهما ﴾ وهو الكافر ﴿ جنتين ﴾ تثنية جنة، وهي البستان الذي تكثر فيه الأشجار ﴿ من أعناب وحففناهما بنخلٍ ﴾ ، أي جعلنا النخل محيطا بهاتين الجنتين ، وأصل (الحف) بالشيء الطواف به من جميع جوانبه كقوله : ﴿ وترى الملائكة حافِّين من حول العرش ﴾، ثم قال: ﴿ وجعلنا بينهما ﴾ أي بين الجنتين، أو بين النخل والأعناب ﴿ زرعا ﴾ فحصل منهما الفواكه والأقوات ، وهما كمال مقومات الحياة والثروة والجاه .

﴿ كلتا الجنتين آتت ﴾ أي أعطت ﴿ أكلها ﴾ أي ثمرها كاملة ﴿ ولم تظلم ﴾ أي تنقص ﴿ منه ﴾ أي من أكلها وثمارها ﴿ شيئا ﴾ ولو يسيرا ، على خلاف ما يعهد في ثمر العنب والنخل، من أنها تكثر غلتها أعواما ، وتقل أعواما﴿ وفجرنا خلالهما ﴾ أي خلال الجنتين، أي فيما بينهما ﴿ نهرا ﴾ عذب الماء، يتدفق بقوة ، بدلالة قوله : ﴿ وفجرنا ﴾ ، يسقي الأشجار والزروع ، ويزيد في بهجة منظرهما ، تتميما لحسنهما ﴿ وكان له ﴾ أي لصاحب الجنتين ﴿ ثمر ﴾ أي أنواع أخرى من الأموال غير الجنتين ، من ذهب وفضة ثمَّرها بما ادخره من غلات الجنتين ، ومن تجارات أخرى ، مشتق من قولهم: ثمَّر ماله، إذا كثره.

وخلاصة ذلك : أن أرضه جمعت مقومات الحياة من القوت والفاكهة والماء العذب ، وهي متواصلة متشابكة ، فلها منظر ورواء حسن ، ووضع أنيق ، يخلب اللب بجماله وبهجته ، إذا امتلأ منه البصر .

وبعد أن أنعم الله عليه بخيرات الدنيا ولذاتها ونعيمها ، وتم له الأمر، وقعد على سنام العز والكبرياء داخله الزهو والكبر والخيلاء ﴿ فقال لصاحبه ﴾ المؤمن ﴿ وهو يحاوره ﴾ أي يراجعه في الكلام ، تعييرا له بالفقر ، وافتخارا عليه بالمال والجاه ﴿ أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ﴾ أي مالي أكثر من مالك، كما ترى من جناتي وزروعي ، وأموالي الكثيرة المختلفة ، ونفري - وهم عشيرته وقومه ورهطه - أكثر من نفرك ، فتقوم بالذب عني، وتدفع عني خصومتي ، وتنفر معي عند الحاجة إليها.

ثم زاد فخرا على صاحبه المؤمن، وأراه عيانا ما يتمتع به من المناظر البهيجة في تلك الجنان. وذلك ما أخبر عنه - سبحانه - بقوله : ﴿ ودخل جنته ﴾ إما أن يكون المراد الجنس أي جنتيه، أو المراد إحداهما، ولعلها الكبرى منهما ، دخل بصاحبه يطوف به فيها ، ويفاخره بها، كما يدل عليه السياق وهو المحاورة ﴿ وهو ظالم لنفسه ﴾ جملة حالية ، أي دخلها حال كونه ظالما نفسه ، وظلمه لنفسه بما يوجب سلب هذه النعمة ، وذلك بالعجب أولا ، والكفر ثانيا ، وأصل (الظلم) النقص ، ووضع الشيء في غير موضعه ، فكان الأليق به أن يكون شاكرا لتلك النعم ، متواضعا لربه ، لا أن يكون كافرا به ، منكرا للبعث ، ولهذا ﴿ قال ﴾ حين عاين ما فيهما من أشجار ، وثمار وزروع ، وأنهار مطردة ﴿ ما أظن أن تبيد ﴾ أي تفنى وتهلك ﴿ هذه ﴾ أي الجنة ﴿ أبدا ﴾ لاعتقاده أبدية الدهر ، وأنه لا بعث ولا نشر ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي كائنة وآتية.

وخلاصة ذلك: أن سبب خسارته أمران : الأول : ظنه أن جنته تلك لن تهلك ولن تبيد مدى الحياة ، والثاني : ظنه أن يوم القيامة لن يكون.

ثم تمنى أمنية أخرى كان في شك منها فقال : ﴿ ولئن ﴾ اللام موطئة للقسم، أي: والله لئن ﴿ رددت إلى ربي ﴾ أي رجعت إليه على سبيل الفرض والتقدير ﴿ لأجدن خيرا منها ﴾ أي أفضل من هذه الجنة ﴿ منقلبا ﴾ أي مرجعا وعاقبة ، قال ذلك تمنيا على الله تعالى ، والذي جرأه على هذا الطمع ، وعلى تلك اليمين الفاجرة ظنه أن الله تعالى ما أعطاه الجنتين إلا لكرامة له عنده ، واستحقاقه لها ، وأنه لو فرض أن هناك قيامة يرجع فيها إلى الله فإن الله سيكرمه كذلك في الآخرة، كما أكرمه في الدنيا كقوله تعالى: ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلا ﴾ ، وكقوله : ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا ، أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا ﴾ ، وقوله : ﴿ ولئن

أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي ﴾ أي على سبيل الفرض والتقدير ﴿ إن لي عنده للحسنى ، فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ ، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ﴾ فرد الله عليهم زعمهم هذا بقوله : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴾ ، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾، وقوله تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذاب مهين ﴾ ، وقوله : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين ﴾.

وخلاصة قوله ذلك : أن الله لم يعطني الجنة في الدنيا إلا ليعطيني في الآخرة ما هو أفضل منها على فرض أن هناك قيامة !، وهذا من عظيم جهلة بحقيقة الدنيا فإنه لا تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، بل الغالب أن الله تعالى يوسع في الدنيا على من لا يحب ممن ليس لهم في الآخرة من نصيب، ويزويها عمن يحب كما قال النبي ﷺ : (إذا أحب الله عبدا حماه من الدنيا كما يحمي أحدكم سقيمه الماء) رواه الترمذي وغيره. (صحيح الجامع).

ثم ذكر ـ سبحانه ـ جواب صاحبه المؤمن له فقال تعالى : ﴿ قال له صاحبه ﴾ وهو الذي عيره بالفقر ﴿ وهو يحاوره ﴾ أي يراجعه في الكلام ، تعييرا له على عجبه بماله وعشيرته ، وكفره بربه ، واعظا له ، وزاجرا له عما هو فيه من الكفر ، فأصل (المحاورة) المراجعة في الكلام، ومنه قوله تعالى: ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما ﴾.

وقوله: ﴿ أكفرت بالذي خلقك ﴾ أي خلق أصلك آدم ﴿ من تراب ثم ﴾ خلق نسله ﴿ من نطفة ﴾ وأنت منهم، كقوله تعالى: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾، ولهذا قال هنا: ﴿ ثم سواك رجلا ﴾ أي عدلك وكملك إنسانا ، حتى بلغك مبلغ الرجال ، كقوله تعالى: ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾، وكقوله : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك ﴾ والاستفهام هنا إنكاري تعجبي ، كقوله : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا ﴾ ، أي كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جلية ، كل أحد يعلمها من نفسه ، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوما ثم وجد ، وليس وجوده من نفسه ، ولا مستندا إلى شيء من المخلوقات لأنها بمنزلته ، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه ، وهو الله لا إله إلا هو ، خالق كل شيء ، كما في قوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ۞ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾ ، فإذا امتنع أن يكون خُلِق من لا شيء ، أو أنه خَلَق نفسه ، أو أحد من الخلق خلقه ، لم يبق إلا الله جل وعلا . وهي حجة بالغة.

ولهذا قال له صاحبه المؤمن : ﴿ لكنا هو الله ربي ﴾ أي أنا لا أقول بمثل مقالتك هذه ، ولكن أنا أقول : هو الله ربي ، فأعترف له وحده بالربوبية والألوهية ، وأصل ﴿ لكنا ﴾ لكن أنا ، حذفت الهمزة ، وأدغمت اللام في اللام.

﴿ ولا أشرك بربي أحدا ﴾ كائنا من كان ، لا في ربوبيته ، ولا في ألوهيته ، ولا في أسمائه وصفاته ، لا ملَكا مقربا ، ولا نبيا مرسلا ، ولا عبدا صالحا، ولا شمسا ولا قمرا ، ولا حجرا ولا شجرا . وفي هذا تعريض لصاحبه بوقوعه في وحل الشرك بالله العظيم، وذلك لأنه لما عجَّز الله عن البعث ، فقد جعله مساويا لخلقه ، وإذا أثبت المساواة أثبت الشريك.

ثم زاد في وعظه فقال له : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ﴾ أي هلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله تعالى على ما أنعم به عليك، من كثرة الأموال والأولاد والأهل والعشيرة، وقلت عند ذلك : (ما شاء الله) أيْ ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فهذا الأمر كائن بمشيئة الله ، فتعترف بأنها كلها وما فيها من خير إنما حصل بمشية الله تعالى وفضله، وأن أمرها بيده، إن شاء تركها عامرة، وإن شاء خربها ﴿ لا قوة ﴾ أي على فعل شيء ولا تركه ﴿ إلا بالله ﴾ تعالى ، ومن ذلك ما قويت عليه من عمارتها وتدبير أمرها ، فإنما هو بمعونته وتأييده سبحانه ، إذ لا يقوى أحد على أي أمر كان إلا بالله تعالى ، والمقصود من ذلك التبرؤ من الحول والقوة ، وإسناد القوة والحول إلى الله تعالى وحده لا شريك له.

وبعد أن نصح الكافر بالإيمان، وأبان له عظيم قدرة الله تعالى، وكمال سلطانه ، أجابه عن افتخاره بالمال والنفس ، وأشار إليه بأن ما عيره به من الفقر لا يبعد أن ينعكس عليه ، كما قيل : (لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك)، ولهذا قال له: ﴿ إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا ﴾ فإني أرجو أن يقلب الله عليك الآية ، فيجعلني بمنزلتك في الغنى لإيماني ، ويجعلك بمنزلتي في الفقر لكفرك ، ولهذا قال : ﴿ فعسى ربي أن يؤتين ﴾ أي في الدنيا قبل الآخرة ﴿ خيرا من جنتك ويرسل عليها ﴾ أي على جنتك هذه التي أعجبت بها ، وتفخر علي بها ﴿ حسبانا من السماء ﴾ أي ما يدمرها من آفات علوية من جهة السماء، كالصواعق والصيحة والرياح والحجارة والأمطار المهلكة والجراد ونحو ذلك من جنود الله ، فإن ﴿ لله جنود السموت والأرض ﴾ ، ﴿ فتصبح ﴾ جنتك هذه ﴿ صعيدا زلقا ﴾ أي أرضا ملساء ، لا تثبت عليها قدم لملاستها ﴿ أو ﴾ يهلكها بآفة سفلية من جهة الأرض ، بأن ﴿ يصبح ماؤها غورا ﴾ أي غائرا ذاهبا في الأرض ﴿ فلن تستطيع له طلبا ﴾ أي حيلة تدركه بها لا بالحفر ولا بغيره، و(الغائر) ضد النابع. كقوله: ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾.

وخلاصة ذلك: أن المؤمن رجا هلاك جنة صاحبه الكافر ، إما بآفة سماوية علوية ، أو بآفة أرضية سفلية، وكلتاهما مما يتلف الشجر والعنب والزرع ، ويذهب ما فيها من نفع.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ بأنه قد حقق ما قدره هذا المؤمن، وما رجاه من ربه، فقال : ﴿ وأحيط بثمره ﴾ أي جاءه ما توقعه صاحبه المؤمن، فأهلكها الله ، ودمرها عليه ، والإحاطة بالشيء كناية عن أهلاكه، كقوله : ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ ، ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ من أموال كثيرة ، وما بذله فيها من جهود كبيرة، وتقليب الكفين كناية عن شدة التحسر، وغاية الندم، فإن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن ، كما كني عن ذلك أيضا بعض الكف ، والسقوط في اليد ، كما في قوله : ﴿ ويوم يعض الظالم على

يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ﴾ ، وقوله : ﴿ ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾.
﴿ وهي خاوية على عروشها ﴾ أي ساقطة عليها ، و(العروش) جمع عرش ، وهو ما يصنع ليوضع عليه الشيء ، يعني أن أعنابها المعروشة سقطت عروشها على الأرض، وسقطت فوقها الكروم.
﴿ ويقول ﴾ معطوف على : ﴿ يقلب ﴾ أي فأصبح يقلب كفيه ويقول : ﴿ يا ليتني لم أشرك بربي أحدا ﴾ كائنا ما كان ، فتذكر موعظة أخيه، فعلم أنه أتي من جهة شركه وطغيانه ، فتمنى لو لم يكن مشركا ، حتى لا يهلك الله بستانه ، وهذه عادة أهل الكفر والمعاصي ، فتجده في حال الأمن والغنى يطغى ويكفر ، كما قال تعالى : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ أي لأجل أن رأى نفسه استغنى ، فإذا حلت العقوبة قال : يا ليت : كما قال تعالى عن فرعون : ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ، آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾.
ثم بين ـ سبحانه ـ عاقبة أمره بقوله : ﴿ ولم تكن له فئة ﴾ أي قوم وطائفة وعشيرة ﴿ ينصرونه من دون الله ﴾ أي يقدرون على نصرته من دون الله، كما افتخر بهم قبل ذلك ﴿ وما كان منتصرا ﴾ أي ممتنعا هو بنفسه وقوته عن انتقام الله منه. كقوله تعالى عن قارون: ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾، وكقوله تعالى : ﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾.
والخلاصة : أنه لا أحد ينصره غير الله ، لا ولد ولا عشيرة ، كما أنه هو أيضا لا يقدر على أن ينتصر لنفسه.
قال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ في " تفسيره ": ولا يستبعد ـ من رحمة الله ولطفه ـ أن صاحب هذه الجنة التي أحيط بها تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا، وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول. اهـ
ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ هنالك ﴾ أي في مثل ذلك المقام ﴿ الوَلاية لله الحق ﴾ بفتح الواو أي النصرة والغلبة، كقوله تعالى: ﴿ ما لكم من وَلايتهم من شيء ﴾، وقرئ ﴿ الوِلاية ﴾ بكسرها، أي الملك والسلطة، والمعنى: في مثل تلك الحال التي وقع فيها الإهلاك والتدمير النصرة، والغلبة والملك والسلطة لله وحده، لا يقدر عليها أحد غيره، فالجملة إذاً مؤكِّدة لقوله : ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ﴾ ، فهو ـ سبحانه ـ الذي ينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه المشركين، وينتقم لهم منهم، ويشفي صدورهم من أعدائهم، كما نصر هنا المؤمن على صاحبه الكافر، وصدَّقه في قوله : ﴿ ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا ﴾.
ولهذا قال هنا: ﴿ هو خير ثوابا ﴾ أي هو ـ سبحانه ـ أفضل وأحسن وأكرم وأجود إثابة لعباده المؤمنين ﴿ وخير عقبا ﴾ أي عاقبة، فلا ينقص لمؤمن درجة لفقره، ولا يترك لكافر عقوبة لشرفه.
وبعد أن ضرب ـ سبحانه ـ المثل لدنيا هؤلاء الكفار التي أبطرتهم ، وكانت سببا في شقائهم، ضرب مثلا آخر للدنيا عموما، في سرعة فَناء ما يتمتعون به منها، ويتفاخرون ويختالون به على غيرهم فقال تعالى:
﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ﴾ أصل (المثل) الصفة، ومنه قوله تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى ﴾، أي الوصف الأكمل، والمعنى: اذكر لهم الوصف الذي تشبهه هذه الدنيا في زهرتها وسرعة زوالها، وهو أنها ﴿ كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ﴾ أي فالتف بسببه نبات الأرض، وتكاثف حتى خالط بعضه بعضا، فشبَّ وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة ﴿ فأصبح ﴾ أي بعد ذلك الزهو والحسن والبهاء ﴿ هشيما ﴾ أي جافا يابسا مكسرا ﴿ تذروه الرياح ﴾ أي تنسفه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال، وتفرقه شذَر مذَر، كأن لم يكن قبل شيئا ، وهكذا حال الدنيا، وحال مجرميها ، فإن ما نالهم من شرف الحياة كالذي حصَل للنبات من شرف النمو ، ثم يزولون زوال النبات.
ولما كان هذا المثل للحياة الدنيا من أروع الأمثال وأبدعها ضربه الله كثيرا في القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازَّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرها ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ﴾ ففي هذه الآيات شبهت الدنيا في نضرتها ثم صيرورتها إلى الزوال ، بحال نبات أخضرَّ وازهرَّ والتفَّ ثم صار هشيما متفتتا تنثره الرياح يمينا وشمالا ، ومن ثم فلا ينبغي لأهلها الاغترار بها ، ولا الفخر بما فيها من أموال ومتاع مهما كثرت ، فإنما هي ظل زائل ، ومتاع ليس تحته طائل.
ثم قال : ﴿ وكان الله على كل شيء ﴾ من إيجاد المعدوم ، وإعدام الموجود ﴿ مقتدرا ﴾ أي كامل القدرة ، لا يعجزه شيء مهما بلغ ، والقدرة هي فعل الشيء بلا عجز ، والمقتدر أبلغ من القادر، لزيادة مبناه ، والقوة فعل الشيء بلا ضعف ، كما قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في الأرض ولا في السماء إنه كان عليما قديرا ﴾ ، وقال : ﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ﴾ .
ثم بين تعالى شأن ما كانوا يفتخرون به من محسنات الدنيا بعد بيان حالها بما مر من المثل ، فقال :
﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ أي إن الأموال والبنين إنما هي زينة ، لما فيهما من إعانة وشرف في الدنيا ، وليست زادا في الآخرة ، وقد علمت أن الدنيا كلها سريعة الفناء ، فلا ينبغي الفخر بها. وخص البنين هنا دون البنات لأنهم موضع التفاخر عادة، وقد كانت البنات في الجاهلية مهينات، كما قال تعالى: ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما ينبغي التفاخر به ، فقال : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ أي والأعمال التي تبقى ثمراتها، وتنفع في الآخرة هي الأعمال الصالحات: من عقائد وأقوال وأفعال، كالإيمان والصلاة والزكاة ، والصوم والحج ، وطلب العلم والجهاد في سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائر أنواع الذكر والبر والإحسان ، فهذه الأعمال هي ﴿ خير عند ربك ﴾ من المال والبنين ﴿ ثوابا ﴾ أي جزاءً في الآخرة ﴿ وخير أملا ﴾ أي أفضل ما يؤمل فيه النفع في تلك الدار؛ لأن النفع فيها مضاعف لا يزول ، بخلاف الدنيا وما فيها. والمراد من الآية تنبيه الناس للعمل الصالح، لئلا يشتغلوا بزينة الحياة الدنيا من المال والبنين عما ينفعهم في الآخرة عند الله من الأعمال الباقيات الصالحات، قال تعالى: ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا ﴾. وقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾.

وتأمل كيف أن الله تعالى لما ضرب مثل الدنيا وحاله ذكر أن الذي فيها نوعان:

نوع: هو مجرد زينة، يتمتع به الإنسان قليلا ثم يزول بلا فائدة تعود على صاحبه في الآخرة، بل ربما لحقه بسببه الضرر وهو المال والبنون.

ونوع: له قيمة، يبقى نفعه على الدوام، وهو المشار إليه بقوله: ﴿ والباقيات الصالحات ﴾.

وبعد أن أبان الله حال الدنيا ، وأنه ينبغي أن لا يغتر بها أحد ، وأن لا يتفاخر بها أحد ، وبين أن حقيقة التفاخر ينبغي أن تكون في الأعمال الصالحات، التي فيها مرضاة الله ومثوبته ، أردف ذلك بذكر بعض أحوال الآخرة ، وأهوال يوم القيامة ، وأنه لا ينجي منها لا مال ولا بنون ، وإنما الذي ينجي منها امتثال هذا الدين ، واتباع سيد المرسلين ، فقال تعالى: ﴿ ويوم نسير الجبال ﴾ أي واذكر يوم نقلعها من أماكنها ونسيرها في الجو كالسحاب، ثم نجعلها هباء منثورا، كما في قوله: ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾ ولهذا قال هنا: ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ أي ظاهرة أرجاؤها وأطرافها ، لا جبال ولا بناء ولا شجر ، ولا مرتفعات ولا اعوجاجات فيها ، فليس عليها شيء يسترها ، كما في قوله تعالى: ﴿ ويسألونك عن الجبال فقال ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾ ، وقوله : ﴿ وبسّت الجبال بسًّا فكانت هباء منبثا ﴾ ، وقوله: ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾.

﴿ وحشرناهم ﴾ أي جمعناهم إلى موقف الحساب ، بعد إخراجهم من قبورهم، وأصل (الحشر) الجمع، كما قال الله تعالى: ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾، ﴿ فلم نغادر ﴾ أي نترك، ومنه قوله ﷺ: (اللهم رب الناس، مذهب الباس، اشف أنت الشافي، لا شافي إلا أنت، شفاءً لا يغادر سقما) رواه البخاري.

فالمعنى: ولم نترك ﴿ منهم أحدا ﴾ لا صغيرا ولا كبيرا ، لا شريفا ولا وضيعا ، لا ملكا ولا وزيرا ، كقوله تعالى: ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ ، وقوله : ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ ، وقوله : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ حتى الوحوش والدواب تجمع في ذلك اليوم، كما قال تعالى : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ ، وقال : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾، فما أعظم هذا الجمع، وما أكبر هذا المحشر، فاللّهم سلّم سلّم.

ولما ذكر ـ سبحانه ـ حشر الخلائق بين كيفية هذا الحشر، وكيفية عرضهم على ربهم ، والغاية من هذا الجمع، فقال تعالى : ﴿ وعرضوا على ربك ﴾ أي هذه الخلائق كلها من لدن آدم إلى آخر من تقوم عليهم الساعة ، تعرض على ربها ـ جل وعلا ـ ﴿ صفا ﴾ أي مصطفين مترتبين ، شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان مصطفين ظاهرين ، يرى جماعتهم كما يرى كل واحد ، فيقومون قومة رجل واحد بين يدي الملك الجبار، كما قال جل جلاله: ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾، وقال تعالى: ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم ﴾، وقال تعالى: ﴿ إلى الله مرجعهم جميعا ﴾. وفي إضافة (الرب) إلى النبي في قوله: ﴿ وعرضوا على ربك ﴾ مزيد تعظيم وتشريف له ﷺ، كقوله: ﴿ رب هارون وموسى ﴾، وقوله: ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾.

ويقال لهم : ﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ حفاة عراة غرلا، لا مال معكم، ولا بنين تنفعكم، ولا خدم ولا حشم تمنعكم، كما قال تعالى: ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ ، وهذا تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد، ومثلها قوله تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم ﴾ أي ما أعطيناكم من متاع الدنيا﴿ وراء ظهوركم ﴾ أي خلفكم في الدنيا ، ولهذا قال النبي ﷺ: (يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان، ويبقى واحد، يرجع أهله وماله، ويبقى عمله) متفق عليه. وعن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يحشر الناس حفاة عراة غرلا (أي غير مختونين) فقلت : الرجال والنساء جميعا، ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض)، رواه مسلم، زاد النسائي: (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه). وفي رواية عند أحمد: (بُهْماً) أي لا مال معهم ، وفي الحديث : (يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفا، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر) ، وفي الآية زجر لأولئك المشركين المنكرين للبعث ، الذين يفخرون في الدنيا على الفقراء من المؤمنين بالأموال والأنصار.

ثم قال تعالى: ﴿ بل زعمتم ﴾ أي بإنكاركم البعث ﴿ أن لن نجعل لكم موعدا ﴾ أي وقتا لإنجاز ما وعدناكم به من البعث والنشور ، والحساب والجزاء، والمعنى: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن، فلم يستعدوا لذلك، ولم يعملوا له أصلا، ففوجئوا بما لم يكن في حسبانهم، ولهذا قال تعالى:

﴿ ووضع الكتاب ﴾ أي صحائف الأعمال ﴿ فترى المجرمين ﴾ وهم الكفرة والعصاة، جمع مجرم، وهو من فعل الجريمة، وهي الذنب العظيم ﴿ مشفقين ﴾ أي خائفين وجلين ﴿ مما فيه ﴾ أي مما سطر فيه من أعمالهم السيئة ، وكتب فيه من أقوالهم الخبيثة ﴿ ويقولون يا ويلتنا ﴾ أي يا هلكتنا ، ويا حسرتنا في هذا اليوم ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ أيْ أيُّ شأنٍ حصل لهذا الكتاب، فإنه لا يترك ذنبا صغيرا ولا كبيرا إلا جمعه وضبطه وحفظه ، والاستفهام هنا للتعجب من إحصائه جميع

أعمال العباد دقيقها وجليلها ، خفيها وجليها ، لم ينس شيئا منها عمل في السر أو العلن، بالليل أو النهار، فلم يتسامح في شيء منها مهما دق ولطف ، بل هو محيط بجميع ما كسبته يد الإنسان، من جليل وحقير، وفتيل وقطمير، كما قال تعالى: ﴿ قال علمها عند ربي في كتاب، لا يضل ربي ولا ينسى ﴾.

ثم أكد ما سلف بقوله : ﴿ ووجدوا ما عملوا ﴾ من أعمالٍ خيرا كانت أو شرا ﴿ حاضرا ﴾ أي مكتوبا مفصلا ليس بغائب، ولا يقدرون على إنكاره، كما قال تعالى : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾، وقال : ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾، وقال : ﴿ ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾، وقال : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ ، وقال : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين ﴾ .

﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾ من خلقه مهما كان، فلن ينقص أحدا حسنة عملها ، ولن يكتب على أحد سيئة لم يعملها ، ولن يعذب أحدا بلا ذنب، بل يثيب من يشاء بفضله ، ويعفو عمن يشاء برحمته ، ويعذب من يشاء بعدله ، قال تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾، وقال تعالى: ﴿ ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾، وقال: ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾، وقال تعالى: ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما ﴾، وقال الله تعالى في الحديث القدسي: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي فلا تظالموا).

قال المراغي ـ رحمه الله ـ في "تفسيره": والخلاصة أن الجزاء نتيجة العمل ، والعمل محفوظ بلا زيادة ولا نقصان ، ولا يعد الجزاء عليه ظلما ، كما لا يعد الهلاك لمن شرب سما ظلما ، لأنها مسببات لأسباب كل عاقل يعلم أنها نتيجة حتمية لها. اهـ.

ثم بين تعالى أن سبب الكفر والعصيان هو طاعة الشيطان ، والذي هو أعدى أعداء الإنسان ، الذي من تولاه فقد سفه نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾، وقال تعالى: ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾ ، وقال: ﴿ إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾، وقال : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾.

فقال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ (الملائكة) خلق من خلق الله تعالى، وهم في الأصل عالَم غيبي، وقد يظهر بعضهم لبعض الناس، ثبت ـ في صحيح مسلم ـ عن النبي ﷺ: (أن الله خلقهم من نور)، لهم أسماء وصفات وأعمال ثبتت في الكتاب والسنة، الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، و(آدم) هو أبو البشر عليه السلام، خلقه الله تعالى بيده من طين، وعظمه ربه وشرفه، وجعله أحد الأنبياء الكرام.

والمعنى: واذكر أيها الرسول حين قلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تحية وإكرام؛ اعترافا بفضله عليهم ، واعتذارا عما قالوه في شأنه، وهو قولهم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ ، وقد كان هذا السجود جائزا من قبل، كما في قوله : ﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ﴾ ثم حرمه الله تعالى، وجعله خاصا به ، قال تعالى : ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ ، وقال النبي ﷺ : (لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) رواه أحمد وابن ماجه (صحيح الجامع)، ﴿ فسجدوا ﴾ كلهم امتثالا لأمر الله تعالى ﴿ إلا إبليس ﴾ وهو الشيطان ، فإنه أبى واستكبر ، وقال : ﴿ أأسجد لمن خلقت طينا ﴾ ، وقال: ﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾، وقال : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾، فكان بذلك من الكافرين.

ثم بين ـ تعالى ـ السبب في عصيانه ومخالفته لأمر ربه فقال : ﴿ كان من الجن ﴾ أي الذي منعه من السجود هو أنه كان من مردة الجن والعتاة فيهم، فرجع إلى أصله ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ أي خرج عن طاعته ، وأصل (الفسق) الخروج، يقال فسقت الرطبة عن قشرتها، إذا خرجت منها، وفسقت الفأرة من جحرها، إذا خرجت منه للعيث والفساد. والفاء في قوله: ﴿ ففسق ﴾ للسببية، أي فسق لأنه كان من الجن، مثل: سرق فقطعت يده، أي قطعت بسبب سرقته.

(أنواع الفسق)

والفسق فسقان: أكبر وأصغر، فالفسق هنا المراد به الفسق الأكبر، فسق الكفر ، بدليل الآيات الأخرى كقوله: ﴿ إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾.

وهناك فسق دون ذلك، غير مخرج من الملة، وهو الأصغر، كما في قوله: ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ ، وقوله في القاذفين: ﴿ ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ﴾. كما أن الكفر كفران، والشرك شركان، والظلم ظلمان، والنفاق نفاقان: أكبر وأصغر، ولكل أحكامه.

(هل إبليس من الجن أو من الملائكة)

وفي الآية دليل لمن قال إن إبليس كان من الجن لا من الملائكة ، ويؤيده أيضا أنه عصى والملائكة ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ، وأن له ذرية ونسلا ، والملائكة لا ينسلون ، وأنه قال : ﴿ خلقتني من نار ﴾ كما قال تعالى : ﴿ والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ ، والملائكة خلقت من نور كما أخبر بذلك النبي ﷺ .

(إشكال وجواب)

فإن قيل: الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ﴾، ألا يدل ذلك على أن إبليس كان من الملائكة لا من الجن؟

فالجواب: الاستثناء يدل على أنه كان مخاطبا بالأمر بالسجود، بدليل قوله تعالى له: ﴿ ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ﴾، فإن ذلك يدل على أنه كان مأمورا بالسجود، ويؤكد ذلك لعنه وطرده والحكم عليه بالكفر والفسوق، حينما عصى الأمر.

ولا يلزم منه أن يكون من جنس الملائكة، لأن الاستثناء تارة يكون متصلا، وتارة يكون منقطعا، فيكون متصلا، فيما إذا كان المستثنى من جنس المستثنى منه، نحو: (جاء القوم إلا زيدا)، فالمستثنى (زيد) من جنس المستثنى منه (القوم)، ويكون منقطعا، فيما إذا كان من غير جنس المستثنى منه، نحو: (جاء القوم إلا متاعهم)، ومعلوم أن (المتاع) ليس من جنس (القوم)، ومثله قوله تعالى: ﴿ إلا إبليس ﴾ فإن الاستثناء فيه منقطع ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ﴾، فإن (السلام) ليس من جنس اللغو.

(فائدة)

قد تسمى الملائكة جِنّا، وذلك باعتبار استتارهم واختفائهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وجعلوا بينه وبين الجِنّة نسبا ﴾ ، فقد قال جماعة من المفسرين إن المراد بـ(الجِنة) هنا الملائكة، حيث زعم المشركون أن الملائكة بنات الله ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ قالوا: ولم يَدَّع أحد نسبا بينه ـ تعالى ـ وبين الجن الذين هم الشياطين، فدل ذلك على أن المراد بالجن هنا الملائكة، نظير قوله تعالى: ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ﴾.

وعليه فالجن أعم، تدخل فيهم الملائكة باعتبار المعنى العام لاستتارهم، ومع هذا فالمراد بقوله تعالى في إبليس: ﴿ كان من الجن ﴾ أي من الشياطين لا الملائكة، لما سبق أن قررناه، ودللنا عليه آنفا.

ثم حذر ـ سبحانه وتعالى ـ عباده من اتباع عدوهم إبليس بعد أن استبان من حاله ما استبان فقال :

﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ﴾ ، أي أفبعد ما صدر منه من القبائح والكبر، والإباء والعصيان ، توالونه بالطاعة والنصرة، فإن ذلك لا ينبغي، كما أوضح ذلك بقوله: ﴿ وهم لكم عدو ﴾ أي تفعلون ذلك مع أنهم ظاهرو العداوة ، يبغون بكم الغوائل ويوردونكم المهالك، وفي هذا تقريع وتوبيخ لمن آثر اتباعه وطاعته على طاعة ربه جل وعلا، ولهذا قال بعدها: ﴿ بئس للظالمين بدلا ﴾ أي بئس إبليس للظالمين بدلا من الله، حيث استبدلوا طاعة الشيطان الرجيم، الموجبة للعذاب الأليم بدلا من طاعة أرحم الراحمين، الموجبة لجنات النعيم .

وخلاصة المعنى : كيف تصنعون هذا الصنيع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم بجميع ما أنتم فيه من النعم، من لا نفع لكم فيه قط، بل هو عدو لكم، يترقب حصول ما يضركم في كل وقت وحين.

ففي هذه الآية الحث على اتخاذ الشيطان وذريته أعداءً، والإغراء بذلك، وذكر السبب الموجب لذلك وهو عداوته، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي وليا، وترك الولي الحميد.

(لطيفة)

سئل الشعبي ـ رحمه الله ـ هل لإبليس زوجة ؟ قال فقلت: ذلك عرس لم أشهده، ثم ذكرت قوله تعالى: ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ﴾ فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة، فقلت : نعم. اهـ

قلت: ويعضد ذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿ أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾، والله أعلم. على أن البحث في تفاصيل ذلك ـ مما أبهمه القرآن والسنة ـ ليس فيه كبير فائدة.

ثم بين ـ سبحانه ـ السبب في عدم استحقاق إبليس وذريته هذه الولاية في أنفسهم بعد بيان خباثة أصلهم فقال تعالى:

﴿ ما أشهدتهم ﴾ أي ما أحضرت إبليس وذريته ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ حين خلقتهن ﴿ ولا خلق أنفسهم ﴾ أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ، فإذا انتفى أن يكون قد أحضرهم حين الخلق ، لم يصح أن يكون أحد منهم عاونه في الخلق ، لأنه لم يحضر أصلا، فكيف يعاون ؟ ولهذا قال : ﴿ وما كنت متخذ المضلين ﴾ من الشياطين وذريتهم، ومن جعلوهم شركاء لله ﴿ عضدا ﴾ أي أعوانا في الخلق ، بل هو وحده المتفرد بالخلق والإيجاد ، بغير معين ولا ظهير ، وإذا انتفى أن يكونوا أعوانا لله لم يصح أن يتخذهم أحد شركاء مع الله تعالى ؟ لأنهم عبيد لله مثل غيرهم من الخلق، لا يملكون لأنفسهم ـ فضلا عن غيرهم ـ ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ما ذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ﴾، وقوله تعالى : ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾. وفي الآية النهي عن اتخاذ بطانة السوء، ومرافقة أهل الشر، ومصاحبة ومجالسة أهل الباطل، فأنهم لا خير فيهم، ولكن منهم الشر والضرر.

ثم أخبر سبحانه عما يخاطِبُ به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعا لهم وتوبيخا فقال :

﴿ ويوم يقول ﴾ أي واذكر يوم يقول الرب تبارك وتعالى لهؤلاء المشركين ـ وذلك يوم القيامة ـ يقول لهم تقريعا وتوبيخا : ﴿ نادوا شركائي ﴾ أي ادعوا الذين جعلتموهم شركاء مع الله ﴿ الذين زعمتم ﴾ في الدنيا أنهم شركاء لله ، ادعوهم اليوم لينقذوكم مما أنتم فيه ، والمراد بالشركاء كل من عُبد من دون الله ﴿ فدعَوهم ﴾ أي فنادَوهم لينقذوهم ويشفعوا لهم عند الله ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ أي فلم يعينوهم ولم ينقذوهم ولم يغيثوهم ؛ لعجزهم عن الجواب فضلا عن الإعانة ، ونظير ذلك قوله : ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ وقوله : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ ، وقوله: ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ وقوله : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ ، وقوله : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ، لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴾ . والآيات في تبرئهم منهم يوم القيامة وعدم استجابتهم لهم كثيرة جدا، وخطبة الشيطان المذكورة في سورة إبراهيم من قبيل ذلك المعنى وهي قوله: ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم

فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾.
ثم بين ـ سبحانه ـ عاقبة ندائهم بقوله : ﴿ وجعلنا بينهم ﴾ أي بين المشركين وشركائهم ﴿ موبقا ﴾ (الموبق) هو المهلك، كما في قوله تعالى: ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ أي يهلكهن، والمعنى: جعلنا بين المشركين وشركائهم موضعا للهلاك ، يشتركون في العذاب فيه، وهي النار ، حسما لأطماعهم أن يصل إليهم مَن دَعَوه للشفاعة. ولهذا قال بعدها :
﴿ ورأى المجرمون النار ﴾ أي ورأى أهل الكفر والعصيان جهنم رأي العين ، فشاهدوها بأبصارهم في ذلك اليوم قبل دخولها ﴿ فظنوا أنهم مواقعوها ﴾ أي فانزعجوا واشتد قلقهم، وأيقنوا بأنهم واقعون فيها، وداخلوها بسبب إجرامهم، كقوله تعالى: ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ﴾، وقوله: ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾. فـ(الظن) هنا بمعنى اليقين، كما في قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾.
ففي هذه الآية ذكر الله تعالى أن المجرمين يرون النار عيانا، وفي آية أخرى ذكر أنها هي أيضا تراهم، كما قال: ﴿ بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ﴾.
والتعبير بالماضي في قوله: ﴿ ورأى ﴾ عن المستقبل، إشارة لتحقق وقوعه. وكأنه قد وقع بالفعل فأخبر عنه، كما في قوله تعالى: ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾.
وقوله: ﴿ ولم يجدوا عنها ﴾ أي عن النار ﴿ مصرفا ﴾ أي معدلا ، ومكانا آخر ينصرفون إليه عنها، ويعتصمون به لينجوا من عذاب الله، بل قد أحاطت بهم من كل جانب ، لأن الله تعالى قد حكم وقضى فيهم بذلك ، ولا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه . وفي هذا من التخويف والترهيب ما ترجف له القلوب، وترعد له الأفئدة.
وبعد أن ذكر سبحانه شبهات المبطلين ، ورد عليها بأدلة لا تدحض، وبراهين لا ترد ، قفى على ذلك ببيان أن في القرآن من الأمثال ما فيه مقنع لمن تذكر وتدبر ، ولكن عقول كثير من الناس قد تحجرت ، وقلوبهم قد قست ، فلا تنفع فيها تذكرة ، ولا تؤثر فيها موعظة ، ولو أنه تعالى يؤاخذ الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكنه ـ جل وعلا ـ حليم لا يعاجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل، وقد جعل لهلاكهم موعدا، لعلهم يثوبون إلى رشدهم، ويرعوون عن غيهم ، فقال تعالى :
﴿ ولقد صرفنا ﴾ أي نوعنا وكررنا ورددنا بعبارات مختلفة، وأساليب متنوعة، وأصل (التصريف) التنويع، كما في قوله تعالى: ﴿ وتصريف الرياح ﴾ أي تنويعها من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب ﴿ في هذا القرآن ﴾ الكريم ﴿ للناس ﴾ عموما مؤمنهم وكافرهم ﴿ من كل مثل ﴾ يقرب لهم المعاني المعقولة، بالأمثلة المشاهدة المحسوسة ، فوضحنا لهم فيه كل ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم ، ليذكروا ، ويعتبروا ، فيقلعوا عما هم فيه من الكفر والعصيان ، ولكن أكثر الناس عن ذلك معرضون .
ثم بين ـ سبحانه ـ سبب هذا العتو فقال : ﴿ وكان الإنسان ﴾ بمقتضى جبلته ﴿ أكثر شيء جدلا ﴾ أي أكثر المخلوقات مجادلة ومخاصمة، ومعارضة للحق بالباطل ، وهذا طبع غالب في الإنسان ، ولهذا جاء في الصحيحين عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة ، فقال : ألا تصليان ؟ فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلتُ ذلك ، ولم يرجع إلي شيئا، ثم سمعته وهو موَلٍّ يضرب فخذه ويقول: ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ﴾. وفي الآية دليل على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن الآية نزلت ابتداءً في الكفار الذين يجادلون في القرآن الكريم بالباطل، ومع هذا استدل بها النبي ﷺ على ما حصل من علي رضي الله عنه.
وضرب الأمثال في القرآن الكريم كثير جدا، إلا أنه لا يعقل معانيها، ولا ينتفع بها إلا أهل العلم خاصة، أما غيرهم فلا ينتفعون بها، بل قد يضلون بها، فإن الله تعالى ذكر أنه يهدي بها قوما، ويضل بها آخرين، كما قال تعالى: ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾. وقال تعالى: ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ما ذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين ﴾.
والخلاصة : أننا قد بينا للناس في هذا القرآن ، ووضحنا لهم الأمور وفصلناها لهم؛ لئلا يضلوا عن الحق ، ويخرجوا عن طريق الهدى ، ومع هذا البيان، وذاك الفرقان فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة، والمعارضة للحق بالباطل ، إلا من هداه الله وبصره بطريق النجاة، وقليل ما هم.

(فائدة)

الجدال نوعان: مذموم ومحمود، فالمذموم ما كان لإحقاق باطل، أو إبطال حق، أو لا فائدة منه، ومنه قول تعالى: ﴿ فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾، وقول النبي ﷺ: (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء ولو كان محقا). والمحمود ما كان فيه فائدة كإظهار حق، ومنه قوله تعالى: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾، وقوله: ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾.
ولما بين إعراضهم عن الحق ذكر علة ذلك فقال : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم ﴾ أي وما منع أهل مكة وأمثالهم من المشركين من الإيمان بما جئتهم به من القرآن، وما فيه من الهداية إلى طريق الحق ، ويطلبوا من ربهم مغفرة ما سلف من ذنوبهم ﴿ إلا أن تأتيهم سنة الأولين ﴾ وهي عذاب الاستئصال ﴿ أو يأتيهم العذاب قبلا ﴾ أي مواجهة فيرونه عيانا.
فالمعنى إذاً: وما منع هؤلاء المشركين من أن يؤمنوا بالله ، ويطلبوا منه مغفرة ذنوبهم ـ حين جاءتهم البينات الواضحة ، والحجج المقنعة الظاهرة ، وعلموا صحة ما تدعوهم إليه ـ إلا تعنتهم وعنادهم ، الذي جعلهم يطلبون أحد أمرين: إما عذاب الاستئصال ، كقولهم: ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ، وقوله: ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾، أي نصيبنا المقدر لنا من العذاب، الذي تزعم وقوعه بنا إن لم نصدقك

ونؤمن بك، وقولهم: ﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ ، وقولهم : ﴿ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾، وإما أن تأتيهم بأنواع من العذاب، وألوان من البلاء، يتلو بعضه بعضا، فيرونه عيانا، يواجههم ويقابلهم.
ولما كان مجيء ذلك بيد الله ، وأمره مفوض إليه لا إلى الرسول ﷺ ، نبه إلى ذلك بقوله :
﴿ وما نرسل المرسلين ﴾ قبل إنزال العذاب ﴿ إلا مبشرين ﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات النعيم ، والأجر العظيم ﴿ ومنذرين ﴾ الذين كفروا وكذبوا وعصوا الرسول بالعذاب الأليم، والخزي العظيم، هذه هي وظيفتهم ، من لدن نوح إلى محمد صلى الله عليهم وسلم، ولم نرسلهم ليقترح عليهم الظالمون من أممهم الآيات بعد ظهور المعجزات ، ويطلبوا منهم ما لا قِبَل لهم به ، كقوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه ، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ ، وقوله: ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ﴾، وقوله : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا أرنا الله جهرة ﴾ .
ثم بين ـ تعالى ـ أن من شأن المشركين كثرة الجدل والشغب للرسول ﷺ فقال : ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ﴾ كاقتراح الآيات ، وكقولهم : أخبرنا عن فتية ذهبوا أول الدهر ما شأنهم ، وعن رجل طاف الأرض مشرقا ومغربا ، وعن الروح ونحو ذلك مما يقصد منه التعنت وإزالة الحق الذي جاءت به الرسل ، ولهذا قال : ﴿ ليدحضوا به الحق ﴾ أي ليزيلوا به الحق الثابت عن مقره ، وليس ذلك بحاصل لهم. وقد أبطل الله جميع حججهم، وفند كل شبههم، بما لا مزيد عليه، كما قال تعالى: ﴿ والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم ﴾، وقال تعالى: ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾.
وخلاصة ما تقدم: أن الرسل ما أرسلوا للجدل والشغب بالباطل ، بل بعثوا للبشارة والنذارة.
﴿ واتخذوا ﴾ أي صيروا ﴿ آياتي ﴾ الكونية والشرعية ﴿ وما أنذروا ﴾ أي وجعلوا إنذارهم أيضا ﴿ هزوا ﴾ أي محلا للسخرية والاستهزاء، وهو أشد أنواع التكذيب ، كقوله تعالى : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ ، وقوله : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾، وقوله: ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ﴾ أي لاهون مغنون، وقوله: ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾، وهذه سنة وعادة في الكفار عموما مع أنبيائهم ورسلهم إذا جاءوهم بآيات الله كما قال تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملإه، فقال إني رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾ وقال تعالى: ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلى كانوا به يستهزئون ﴾ وقال تعالى: ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾.
ولما حكى عنهم قبيح الأحوال، وخبيث الأقوال، وصفهم ـ سبحانه ـ بما يوجب الخزي والنكال، فقال تعالى:
﴿ ومن أظلم ﴾ الاستفهام هنا المراد منه النفي ، أي لا أحد أظلم ﴿ ممن ذكر بآيات ربه ﴾ ليتعظ بها ويعتبر بها ، وينتفع بها ﴿ فأعرض عنها ﴾ أي ولى مدبرا، فلم يبال بها، ولم يهتم لها ﴿ ونسي ما قدمت يداه ﴾ من أنواع الكفر والشرك والضلال والعصيان ، فلم يثب إلى رشده، ولم يتب من ذنبه، ولم يرجع إلى ربه. والله جل وعلا لم ينس شيئا من ذلك، بل حفظه وضبطه، كما قال تعالى: ﴿ وما كان ربك نسيا ﴾، وقال: ﴿ يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه ﴾.
وإضافة ما اقترفه العبد من الذنوب إلى اليدين خاصة مع أن الكفر والمعاصي تكون بالقلب واللسان، والسمع والبصر، والقدم والفرج أيضا، لكثرة مزاولة اليدين للأعمال عادة.
ثم علل ذلك الإعراض، وذاك النسيان بقوله: ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ أي أغطية كثيفة ﴿ أن يفقهوه ﴾ أي تمنعها من الانتفاع به، ففيه الحث على فقه آيات الله تعالى ﴿ و ﴾ جعلنا أيضا ﴿ في آذانهم وقرا ﴾ أي حجابا ثقيلا يمنعهم من الاستماع إليه، والإقبال عليه، جزاء إعراضهم عنه، وإيثارهم الضلالة على الهدى، كقوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ ، وكقوله : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ ، وكقوله: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾، بخلاف الذين يقبلون على الحق رغبة في الانتفاع به فإن الله تعالى يجازيهم بالإحسان إحسانا، كما قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾، وقال : ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ﴾. وأصل (الوَقر) بفتح الواو الثقل في السمع، و(الوِقر) بكسرها الحمل الثقيل، يقال: جاء يحمل وِقره، كما قال تعالى: ﴿ فالحاملات وِقرا ﴾.
ثم قال تعالى: ﴿ وإن تدعهم إلى الهدى ﴾ وهو الحق الذي فيه هدايتهم وصلاحهم ، وسعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ﴿ فلن يهتدوا إذا أبدا ﴾، كقوله : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ، وقوله : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ . وذلك لأنهم فقدوا الاستعداد لقبول الرشاد بما دنسوا به أنفسهم، واجترحوه من الكفر والفسوق والعصيان ، بسبب ذلك أصبح بينهم وبين الحق حجاب غليظ، يمنع دخول الحق إلى الآذان والأبصار والقلوب فتنتفع به ، ويمنع أيضا خروج الباطل منها فتتزكى منه ، كما قال الله تعالى في الكافرين : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴾، وقال : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾.
وبعد هذا الترهيب جاء الترغيب فقال تعالى: ﴿ وربك الغفور ﴾ صيغة مبالغة من غافر، أي كثير المغفرة لذنوب عباده ، والمغفرة هي ستر الذنب مع التجاوز عنه.

﴿ ذو الرحمة ﴾ أي صاحب الرحمة الواسعة، التي وسعت كل شيء ، كقوله : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ ، فيرحم بها من تعرض لها فطلبها، وسعى في تحصيل أسبابها. ومع كونه - تعالى - واسع الرحمة فإنه شديد العقاب لمن كفر وتمرد وعصى كما قال تعالى: ﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾.
﴿ لو يؤاخذهم بما كسبوا ﴾ من أقوال بألسنتهم ، وأفعال بجوارحهم ، وعقائد بقلوبهم ، لو يؤاخذهم بذلك ولم يحلم عليهم. ﴿ لعجل لهم العذاب ﴾ أي لبادرهم به حين طلبوه قبل يوم القيامة ، ونظير ذلك قوله : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ ، وقوله : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ . ولكنه - سبحانه - حليم لا يعاجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل، فإذا أخذ الظالم بذنبه فلا تسل عن أخذه، قال النبي ﷺ: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) وقرأ قوله تعالى: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾.
﴿ بل لهم موعد ﴾ هو يوم القيامة، وعدهم الله بمجيئه وحسابهم فيه.
﴿ لن يجدوا من دونه موئلا ﴾ أي لا مفر لهم من يوم القيامة، ولا محيص لهم عنه. كقوله تعالى: ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾. وقوله: ﴿ ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾. وقوله: ﴿ ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ﴾.
والمعنى: لهم موعد يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، وهذه هي سنته - تعالى - في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنابوا غفر لهم ورحمهم، وإن استمروا على ظلمهم وعنادهم وجاء الوقت الموعود أنزل بهم بأسه، الذي لا يرد عن القوم المجرمين، ولهذا قال تعالى:
﴿ وتلك القرى ﴾ كعاد وثمود ومدين وقوم نوح ولوط وفرعون ﴿ أهلكناهم ﴾ بأنواع من العقوبات، وألوان من الابتلاءات ﴿ لما ظلموا ﴾ أي أهلكناهم حين ظلموا، أي بسبب ظلمهم، وهو كفرهم بآيات الله، وعصيانهم رسول الله ، ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾.كما قال تعالى : ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾، وقوله: ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ﴾ كقوم لوط وأصحاب الفيل ﴿ ومنهم من أخذته الصيحة ﴾ كثمود ومدين ﴿ ومنهم من خسفنا به الأرض ﴾ كقارون ﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾ كقوم نوح وفرعون ﴿ وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ﴾ أي بالطاعة ﴿ ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾.
﴿ وجعلنا لمهلكهم موعدا ﴾ أي وقتا محددا معينا، لا محيد لهم عنه ، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون، بل حين بلغوه جاءهم العذاب فأهلكوا به ، كما هي سنته تعالى في الأمم المكذبة لرسله ، وفي ذلك تحذير لقريش الذين يستبطئون نزول العذاب ، فعليهم أن يتعظوا ويعتبروا بما حل بهذه الأمم، فإنهم أقوى وأكثر منهم ، فإذا لم يقدروا على دفع ما أراد الله بهم ، فأولى قريش ؛ لأنها أضعف وأقل ، كما قال تعالى : ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ كعاد وثمود ومدين ﴿ وما بلغوا ﴾ أي ما بلغت قريش ﴿ معشار ما آتيناهم ﴾ أي وما وصلت عشر العشر مما أعطينا أولئك من القوة والعلم والأموال والمساكن والمتاع ﴿ فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾، وكقوله : ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض وقالوا من أشد منا قوة ﴾، وقوله: ﴿ وتنحتون الجبال بيوتا ﴾، وقوله: ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر ﴾، وقوله : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾.

(قصة نبي الله موسى مع عبد الله الخضر عليهما السلام)

وبعد أن ذكر الله - تعالى - قصص المشركين، وما كانوا عليه من كبر واحتقار لضعفة المؤمنين منعهم من قبول الحق والأخذ به، قفى على ذلك بذكر قصة موسى عليه السلام مع الخضر؛ ليبين لهم أن موسى مع كونه من أكابر الأنبياء، وأولي العزم من الرسل، ذهب هو بنفسه إلى الخضر ليتعلم منه ما لم يَعْلَمْه، ولم تمنعْه مكانته من التواضع للحق، وفي ذلك دليل على أن تواضعهم خير لهم لو كانوا يعلمون. فقال تعالى:
﴿ وإذ قال موسى ﴾ أي واذكر أيها الرسول حين قال موسى بن عمران عليه السلام ، أكبر أنبياء ورسل بني إسرائيل ، أوذي في الله أذى كثيرا ، لذا كان من أولي العزم من الرسل ، كلمه الله تكليما، وكان عند الله وجيها، واصطنعه لنفسه، ورباه تحت رقابته، وأحاطه بعنايته ورعايته، قال يوما ﴿ لفتاه ﴾ أي غلامه الذي يخدمه ويتعلم منه، والعرب تسمي الخادم (فتى) لأن الخدم أكثر ما يكونون في سن الفتوة، وفتاه هذا هو (يوشع بن نون) كان شابا ، وكان محبا لموسى، وخادما له ، فاختصه موسى رفيقا له ، وصار خليفة من بعده على بني إسرائيل ، وفتح الله على يديه بيت المقدس ، ونصره على القوم الجبارين.
﴿ لا أبرح حتى أبلغ ﴾ أي لا أزال مستمرا في السير إلى أن أبلغ ﴿ مجمع البحرين ﴾ أي حتى أصل إلى ملتقى البحرين ﴿ أو أمضي حقبا ﴾ أي ولو أسير سنوات طويلة، حتى أصل إلى بغيتي، وأحصِّل مطلبي.
وسبب ذلك أن الله تعالى أوحى إلى موسى: أن عبدا من عبادي بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم تحط به ، فعزم موسى أن يرحل إليه ليتعلم منه ، ولو طال به الزمن ، وتحمل من العناء والمشقة ما تحمل . فانطلق هو وغلامه يمشيان.
﴿ فلما بلغا ﴾ أي موسى وفتاه ﴿ مجمع بينهما ﴾ أي مجمع البحرين، وهو المكان الذي وعده الله أن يلقاه عنده، وقد اختلف في تعيينه، ولا فائدة من معرفة ذلك ﴿ نسيا حوتهما ﴾ أي نسيا الحوت الذي تزوداه معهما في مجمع البحرين ﴿ فاتخذ ﴾ أي الحوت ﴿ سبيله ﴾ أي طريقه ﴿ في البحر سربا ﴾ أي مسلكا مثل السرب في الأرض ، فجعل الحوت لا يمس شيئا من الماء إلا يبس. وصار الماء كالقنطرة عليه ، فكان ذلك للحوت سربا ، ولموسى وفتاه عجبا ، لأن حياة الحوت بعد موته ، ثم دخوله في البحر بحيث يصير عليه سربا، كالنفق لا يلتئم بعد مروره فيه أمر في غاية من العجب ، وهو معجزة لهما.
﴿ فلما جاوزا ﴾ أي جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين، وهو المكان المقصود لهما ،أحس موسى بالجوع ﴿ قال لفتاه آتنا غداءنا ﴾ أي ما نتغدى به وهو الحوت ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ أي تعبا ومشقة ، وقد كان من الحكمة في حصول الجوع والتعب له حين جاوز المكان أن يطلب الغداء، فيذكر الحوت، فيرجع إلى حيث يجتمع بمن يريد.

﴿ قال ﴾ يوشع لموسى ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ﴾ أي أرأيت ما حدث لي حين لجأنا إلى الصخرة التي بمجمع البحرين لنستريح عندها ﴿ فإني نسيت الحوت ﴾ وذلك أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأخذ معه حوتا، فحيث فارقه فهو المكان الذي يجد عنده هذا العبد ، فأخذه وجعله في مكتل، فبينما هما في ظل صخرة إذ تسرب الحوت، حتى دخل البحر، وموسى نائم، فقال فتاه : لا أوقظه حتى يستيقظ، فلما استيقظ نسي أن يخبره. ولهذا قال:
﴿ وما أنسانيه ﴾ أي وما أنساني ذكر الحوت ﴿ إلا الشيطان أن أذكره ﴾ لك ﴿ واتخذ سبيله ﴾ أي وصير الحوت طريقه ﴿ في البحر ﴾ أمرا ﴿ عجبا ﴾ ، إذ صار الماء عليه سربا.
فإن قيل: ما وجه نسبة النسيان هنا للفتى وحده، حيث قال: ﴿ فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾، ونسبته قبل ذلك لهما معا، حيث قال: ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ﴾ فالجواب: هو أن النسيان وقع من فتى موسى، لأنه هو الذي كان تحت يده الحوت، وهو الذي نسيه. وإنما أسند النسيان إليهما هنالك لاهتمام موسى بشأن الحوت أيضا، فناسب أن ينسب إليهما معا.
﴿ قال ﴾ موسى ﴿ ذلك ﴾ أي المكان الذي فقدنا فيه الحوت ﴿ ما كنا نبغ ﴾ أي ما كنا نطلب فيه الخضر ، لأنه أمارة مطلوبنا ومقصودنا ﴿ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ أي فرجعا ماشيين في الطريق الذي جاءا فيه، يتبعان أثر أقدامهما؛ لئلا يفوتهما الموضع مرة أخرى، فأتيا الموضع الذي نسيا فيه الحوت.
﴿ فوجدا عبدا من عبادنا ﴾ وهو الخضر عليه السلام ، وجداه مسجى بثوب ﴿ آتيناه رحمة من عندنا ﴾ أي رحمة عظيمة خصصناه بها، والرحمة هنا الولاية، وقيل النبوة ﴿ وعلمناه من لدنا علما ﴾ أي علما جليلا، أيدناه، وأكرمناه به. لم نطلع عليه الناس.
﴿ قال له موسى ﴾ بعد أن سلم عليه ﴿ هل أتبعك ﴾ أي أصحبك، والاستفهام المراد منه هنا الطلب، ولكنه برفق ولين، وكأنه قال له: ائذن لي في أن أتبعك ﴿ على أن تعلمن مما علمت ﴾ أي من بعض ما علمك الله ﴿ رشدا ﴾ أي هداية وخيرا وصلاحا ، وقد راعى في ذلك غاية التواضع والأدب، فاستجهل نفسه أولا، ثم استأذن أن يكون تابعا له ، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم الله عليه ، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم.
﴿ قال ﴾ أي الخضر لموسى ﴿ إنك لن تستطيع معي صبرا ﴾ ، أي لن تستطيع أن تصبر على متابعتي ومصاحبتي وملازمتي، ثم أكد ذلك معتذرا، ومشيرا إلى علة عدم الاستطاعة بقوله: ﴿ وكيف تصبر ﴾ أي إن صحبتني ﴿ على ما لم تحط به خبرا ﴾ أي على أمور يكون ظاهرها منكرا ، وباطنها معروفا ، لم تدركه أنت، ولم تحط به علما.
﴿ قال ﴾ موسى للخضر ﴿ ستجدني إن شاء الله صابرا ﴾ أي حابسا نفسي على طاعتك، وعلق الأمر بالمشيئة أدبا منه عليه السلام، لأنه يعلم أن الأمر كله لله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ ولا أعصي لك أمرا ﴾ من الأمور ﴿ قال ﴾ الخضر لموسى ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ أي فلا تفاتحني بالسؤال عن شيء أنكرته مني ، ولم تعلم وجه صحته، حتى أبتدئك ببيانه ، فنهاه عن سؤاله، ووعده أن يوقفه على حقيقة الأمر، وهذا من آداب المتعلم مع العالم، والمتبوع مع التابع.
﴿ فانطلقا ﴾ أي على ساحل البحر يطلبان سفينة ، وجيء هنا بصيغة التثنية (فانطلقا) وكذا ما بعدها والظاهر أن (يوشع) كان معهما، ولكنه لم يُذكَر لأنه لا شأن له مع الخضر.
﴿ حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ﴾ أي خرق الخضر هذه السفينة التي ركباها ﴿ قال ﴾ له موسى مستفهما استفهام إنكار : ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها ﴾ أي لتكون عاقبة خرقها غرق أهلها ﴿ لقد جئت شيئا أمرا ﴾ أي عظيما ، لما في ذلك من إتلاف السفينة أولا ، وتعريض أهلها للهلاك ثانيا ، وكفران نعمة الحمل بلا أجرة ثالثا. وهذا من عدم صبره عليه السلام.
﴿ قال ﴾ الخضر لموسى مذكرا إياه الشرط المتقدم : ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا ﴾ أي أنا فعلت ذك عمدا ، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر علي فيها ، لأنك لم تحط بها خبرا ، لأن لها سرا لا تعلمه أنت.
﴿ قال ﴾ موسى للخضر معتذرا ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ﴾ أي لا تلمني ولا تعاتبني على ما حصل مني نسيانا ﴿ ولا ترهقني من أمري عسرا ﴾ أي ولا تحملني شيئا فيه عسر ومشقة؛ لئلا يلجئني ذلك إلى مفارقتك ، والمعنى: لا تعسر علي متابعتك بالمؤاخذة على مثل ذلك، بل يسرها علي بالمسامحة، وترك اللوم والمعاتبة.
﴿ فانطلقا ﴾ أي بعد أن خرجا من السفينة إلى الساحل ﴿ حتى إذا لقيا غلاما ﴾ كان يلعب مع أصحابه ﴿ فقتله ﴾ الخضر وذلك بقلع رأسه مباشرة من غير سابق إنذار، كما ورد في الحديث.

﴿ قال ﴾ موسى للخضر مستفهما على وجه الإنكار الشديد: ﴿ أقتلت نفسا زكية بغير نفس ﴾ أي بريئة مما يوجب قتلها ، فهي لم تقتل نفسا حتى تقتل بها ﴿ لقد جئت شيئا نكرا ﴾ أي منكرا عظيما ، أعظم من الأول؛ لأن خرق السفينة يمكن تداركه بالسد ، أما هذا فلا سبيل إلى تداركه.
﴿ قال ﴾ الخضر لموسى ﴿ ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا ﴾ ذكره بالشرط الأول مرة أخرى ، وزاد في قوله هنا: (لك) زيادة في العتاب واللوم؛ لأنه تكرر منه ما يوجب ذلك.
﴿ قال ﴾ موسى للخضر ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها ﴾ أي بعد هذه المرة ﴿ فلا تصاحبني ﴾ أي فاترك مصاحبتي، ولا تجعلني صاحبا لك ﴿ قد بلغت من لدني عذرا ﴾ أي قد وجدت من جهتي عذرا ، لأنك أعذرت إلي مرة بعد مرة ، فخالفتك ثلاث مرات بمقتضى طبع الاستعجال ، فتكون قد بلغت الغاية التي تعذر بسببها في فراقي ، وهذا كلام شخص نادم أشد الندم ، قد اضطره الحال إلى الاعتراف ، وسلوك سبيل الإنصاف ، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال : (رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب ، لكن أخذته من صاحبه ذمامة (أي إشفاق من الذم) ، فقال : ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا ﴾).

﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ اختلف في اسمها ، ولا فائدة من تعيينها ﴿ استطعما أهلها ﴾ أي طلبوا منهم أن يقوموا معهما بحق الضيافة فيطعمونهما ﴿ فأبوا أن يضيفوهما ﴾ أي امتنعوا من استضافتهما، وذلك علامة على أنهم لم يكونوا من أهل الكرم ، وإشارة إلى نقص الإيمان ، فإن النبي ﷺ قال : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) متفق عليه ، ﴿ فوجدا فيها ﴾ أي في هذه القرية ﴿ جدارا يريد أن ينقض ﴾ أي قارب أن يسقط ، وينهدم ﴿ فأقامه ﴾ أي عمَّره الخضر ، وأصلحه ﴿ قال ﴾ له موسى ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجرا ﴾ أي لأخذت أجرة على إصلاح هذا الجدار لأهل هذه القرية، الذين امتنعوا من استضافتنا ، قال له ذلك تحريضا وحثا على أخذ الأجر؛ لإنفاقه في الطعام والشراب وما يحتاجونه عوضا عن ضيافتهم.

﴿ قال ﴾ أي الخضر لموسى ﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾ أي هذا وقت مفارقتي إياك، بحسب ما تم الاتفاق عليه ، وشرطته على نفسك من المفارقة بعد هذا السؤال ﴿ سأنبئك بتأويل ﴾ أي الآن سأخبرك بمآل وعاقبة ﴿ ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ أي هذه الأمور التي صدرت مني ، ولم تصبر عليها ، وهي خلاص السفينة من اليد الغاصبة ، ونجاة أبوي الغلام من شره، مع الفوز بالبدل الأحسن ، واستخراج اليتيمين للكنز .

ثم أخذ الخضر في تفسير ما أشكل أمره على موسى مما أنكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر على باطنه، فقال:

﴿ أما السفينة ﴾ أي التي خرقتها بقلع لوح منها ﴿ فكانت لمساكين ﴾ أي قوم عجزة وضعفاء ومحتاجين ﴿ يعملون ﴾ أي يحترفون بالعمل والاكتساب بها ﴿ في البحر ﴾ بنقل الناس والبضائع من ساحل إلى آخر ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ وذلك بخرقها.

ثم بين السبب في ذلك بقوله : ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾ أي أمامهم، فإن كلمة (وراء) من الألفاظ المتضادة، تطلق على الخلف والأمام، كما في قوله تعالى: ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ أي أمامه، كالقُرْء يطلق على الحيض والطهر.

والمعنى: وكان أمام أصحاب السفينة ملك ظالم ، يعتدي على أصحاب السفن السليمة ، فـ ﴿ يأخذ كل سفينة ﴾ صالحة ﴿ غصبا ﴾ من أصحابها ، فأردت أن أعيبها؛ لأرده عن سفينتهم هذه؛ وتسلم من غصبه، ولم أفعل ذلك لمجرد عيبها فقط.

﴿ وأما الغلام ﴾ الذي قتلته ﴿ فكان ﴾ كافرا وكان ﴿ أبواه ﴾ أي أبوه وأمه ﴿ مؤمنين فخشينا ﴾ لو تركناه حيا ﴿ أن يرهقهما طغيانا وكفرا ﴾ أي خِفْنا أن تحملهما محبته على متابعته في الكفر، فيوقعهما في المشقة والهلاك. والمعنى: لو بلغ فإنه سيدعو أبويه إلى الكفر ، ولفرط محبتهما له سيتابعانه على ما فيه هلاكهما.

﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة ﴾ أي طهارة ﴿ وأقرب رحما ﴾ أي رحمة بهما وصلة لهما. والمعنى: أردنا أن يرزق الله هذين الأبوين ولدا، يكون خيرا من هذا الولد دينا وصلاحا، وأقرب عطفا ورحمة، وبرا وشفقة بهما، وفي هذا تحقيق لقوله تعالى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾.

﴿ وأما الجدار ﴾ الذي أقمته ﴿ فكان لغلامين يتيمين في المدينة ﴾ (الغلام) هو الصغير، و(اليتيم) - من بني آدم - من مات أبوه قبل البلوغ، ومن غيره من ماتت أمه ﴿ وكان تحته ﴾ أي تحت الجدار ﴿ كنز لهما ﴾ و(الكنز) هو المال المدفون من ذهب أو فضة ونحوهما ﴿ وكان أبوهما ﴾ رجلا ﴿ صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ﴾ أي كمال قوتهما بالعقل والرأي ﴿ ويستخرجا كنْزهما ﴾ ليتصرفا فيه ، وينتفعا به ﴿ رحمة من ربك ﴾ أي حصل ذلك رحمة من الله تعالى، وهو تسخيره الخضر لإقامة الجدار لهما ﴿ وما فعلته ﴾ أي ولم أفعل ما رأيته مني ﴿ عن أمري ﴾ أي عن رأيي واجتهاد مني ، وإنما فعلته بأمر الله تعالى ﴿ ذلك تأويل ﴾ أي تفسير ﴿ ما لم تسطع عليه صبرا ﴾، يقال: (تسطع) و(تستطع) لغتان، بمعنى تَقْدِر.

(خلاصة قصة موسى مع الخضر عليهما السلام)

روى الإمام البخاري ومسلم في" صحيحيهما" عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، قال ابن عباس : كذب عدو الله . حدثنا أبي بن كعب - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم ؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك . فقال موسى: يا رب وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتا، فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوتا فجعله بمكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليهما السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما، فناما واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سربا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق. وفي رواية: [حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها، قال: فوضع موسى رأسه فنام ، وفي أصل الصخرة عين يقال لها: الحياة ، لا يصيب من مائها شيء إلا حيي، فأصاب الحوت من تلك العين، فتحرك وانسل من المكتل، فدخل البحر] ، وفي رواية: [فأمسك الله عنه جرية الماء حتى كأن أثره في حجر، قال فقال لي عمرو: هكذا كأن أثره في حجر، وحلق بين إبهاميه والتي تليانهما] ، [فقال فتاه: لا أوقظه حتى استيقظ] فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبر ه بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ ، ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، قال له فتاه: ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا ﴾. قال: فكان للحوت سربا ، ولموسى وفتاه عجبا ، فقال: ﴿ ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾، قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب، فسلم عليه موسى فقال الخضر: وأنى بأرض قومك السلام: قال أنا موسى، قال موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا ﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبرا ﴾ يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، فقال موسى: ﴿ ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا ﴾ قال له الخضر: ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ ، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها، لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئا إمرا. ﴿ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا ﴾ قال : وقال رسول الله ﷺ : وكانت الأولى من موسى نسيانا . قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك [وعلم الخلائق] في علم الله إلا مثل

ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿ أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع صبرا ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى، ﴿ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا فانطلقا حتى أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض ﴾ قال: مائل، فقال الخضر بيده ﴿ فأقامه ﴾ فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ فقال رسول الله ﷺ: (وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما) قال سعيد بن جبير : كان ابن عباس يقرأ: (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا) ، وكان يقرأ : (وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين) .

(فصل في ذكر جملة من الفوائد والأحكام المستنبطة من قصة موسى مع الخضر عليهما السلام)

❁ منها: جواز اتخاذ الخادم ولو كان حرا ، ويؤيد ذلك أن النبي ﷺ كان يخدمه جماعة من الصحابة كابن مسعود وأنس وأبي هريرة وغيرهم رضي الله تعالى عنهم.

❁ ومنها: طواعية الخادم لمخدومه، ما لم يكن في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

❁ ومنها: مشروعية اتخاذ الرفيق في السفر ، ويؤيد ذلك كراهة السفر وحيدا ، لقول النبي ﷺ: (لو يعلم الناس مِنَ الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده) رواه البخاري.

❁ ومنها: مشروعية الرحلة في طلب العلم، ويؤيده قول النبي ﷺ: (طلب العلم فريضة على كل مسلم) رواه ابن عدي في " الكامل "، والبيهقي في " الشُعَب" (صحيح الجامع).

❁ ومنها: أن العلم لا يستغني عنه الإنسان مهما بلغ من المنزلة ، حتى الأنبياء والرسل، فهو أشرف مطلوب من الدنيا ، فتنبغي المداومة عليه، والسعي في تحصيله والاستزادة منه، ولهذا أمر الله نبيه ﷺ بطلبه وسؤاله الزيادة منه، دون ما سواه من أمور الدنيا، مع أنه أفضل الأنبياء، وأعلم الرسل، كما قال تعالى: ﴿ وقل رب زدني علما ﴾.

❁ ومنها: البداءة بالأهم فالأهم، فإن طلب العلم والتزود منه مقدم على الاشتغال بالدعوة والتفرغ للتعليم، ولهذا ترك موسى القعود عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر للتزود من العلم. وفيه رد على الجماعات القائمة على التزهيد في العلم، والتصدر للدعوة على جهل، لا سيما في العقيدة والتوحيد، الذي هو أسُّ الدعوة، وأصل الدين، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾.

❁ ومنها: أن المفضول قد يدرك ما لا يدركه الفاضل، وذلك أن موسى عليه السلام نبي ورسول بالاتفاق، بل من أولي العزم من الرسل ، والخضر في نبوته خلاف ، والجمهور على أنه ليس بنبي ، وإنما هو عبد صالح . ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ أي ولم نفهما داود، ومثله قصة سليمان مع الهدد حيث : ﴿ قال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾.

❁ ومنها: أنه لا ينبغي للمرء أن يعجب بعلمه، كأن يظن نفسه أعلم الناس، فإن لله في خلقه شؤونا، وفي الزوايا خبايا.

❁ ومنها: أن العالم إذا كان ينقصه شيء من العلوم، فينبغي له أن يكمل نفسه وذلك بطلبه ممن يجيده ويتقنه، كالفقيه الذي لا يحسن علم النحو، يطلبه من النحوي، والمحدث الذي لا يتقن الفقه، يطلبه من الفقيه، وهكذا.

❁ ومنها: استحباب الحرص على لقاء العلماء، وتجشم المشاق في ذلك، فإنهم ورثة الأنبياء.

❁ ومنها: أن من كان مسافرا لطلب علم أو جهاد ونحوه إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه ووجهته فإنه أكمل من كتمه، فإن في إظهاره فوائد: من الاستعداد له ، واتخاذ عدته، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهار الشوق إلى العبادة الجليلة، ليكون أسوة حسنة لمن بعده، كما قال موسى : ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا ﴾.

❁ ومنها: مشروعية التزود للسفر ، حيث أخذا معهما ما يكون غداءً لهما، والزاد زادان: زاد حسي، وذلك بأخذ الطعام والشراب واللباس ونحوها، وزاد معنوي، وهو بالتقوى، كما قال تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ ، وهو أعظم الزادين، إذ لا يضر المرء أن يموت جائعا أو عاريا، ويضره لو مات كافرا أو فاسقا.

❁ ومنها: أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله تعالى، بل هو من التوكل عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ ، وقال : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ ، خلافا لما يظنه المتواكلون من أن الأخذ بالأسباب يقدح في التوكل على الله تعالى ، وقد كان نبينا ﷺ أعظم المتوكلين على الله، ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب فلما أراد الهجرة استعان بمشرك ، وفي حروبه وقتاله يأخذ معه العدة والسلاح، حتى إنه في أُحُدٍ ظاهر بين درعين، والأدلة في ذلك أكثر من أن تحصر ، ولهذا قال النبي ﷺ : (لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ﴾ رواه الترمذي وابن ماجه وغيرهما، فهي قد أخذت بالأسباب فتغدو وتروح ، ولا تجلس في بيتها، تنتظر رزقها.

❁ ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وتشريكه في الأكل معه، حيث قال موسى لخادمه: ﴿ آتنا غداءنا ﴾ ولم يقل: (غدائي)، وهو من الآداب الحسنة، والأخلاق الكريمة التي دعا إليها الإسلام، وحث عليها النبي عليه الصلاة والسلام، حيث قال: (إذا جاء خادم أحدكم بطعامه فليقعده معه، أو ليناوله منه، فإنه هو الذي ولي حره ودخانه) رواه أحمد وأبو داود (صحيح الجامع ـ الصحيحة ١٠٤٢).

❁ ومنها جواز الإخبار بالتعب، ويلحق به الألم من مرض ونحوه، إذا كان لمجرد الإخبار، لا للتشكي من الله، على وجه الاعتراض على القضاء والقدر، ويؤيده قول النبي ﷺ: (إني أوعك كما يوعك رجلان منكم) رواه مسلم، وقوله: (بل أنا وا رأساه).

❁ ومنها: أن المتوجه إلى الله تعالى يعان، فلا يسرع إليه التعب والنصب، بخلاف ما لو أخطأ ذلك، فإنه يكون أسرع إلى النصب، وذلك لأن موسى لم يحس بالنصب إلا حينما جاوز مجمع البحرين، كما ورد في الحديث.

❁ ومنها: أن من الآداب أن يُنْسَبَ النسيانُ ونحوُه من الأمور المكروهة إلى الشيطان، على وجه التسويل والتزيين، كما في قوله : ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ ، ونظيره قوله : ﴿ وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ ، وقوله : ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ﴾، وقوله: ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ﴾، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره.

❁ ومنها: أن الشيطان إذا كان سببا في النسيان، فذِكْر الله تعالى سبب في حصول التذكر ، وقلة النسيان ، لأن الشيطان ينفر من ذكر الله تعالى ، كقراءة القرآن ، والاستعاذة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ ، ومثلها قوله تعالى: ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ﴾ أي الذي يوسوس في صدورهم عند الغفلة عن ذكر الله، فإذا ذكروا الله رجع القهقرى، ولهذا وصفه بـ(الخناس) أي الرّجاع عند ذكر الله جل وعلا، ويؤكد ذلك قول النبي ﷺ : (اقرؤوا سورة البقرة غي بيوتكم، فإن الشيطان لا يدخل بيتا يقرأ فيه سورة البقرة) رواه الحاكم والبيهقي، وأخبر أن (من قرأ آية الكرسي عند النوم لم يزل عليه من الله حافظ ولم يقربه شيطان حتى يصبح) رواه البخاري، وأن (من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه) متفق عليه . وقال النبي ﷺ: (إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة أحال - أي تحول من موضعه - له ضراط حتى لا يسمع صوته، فإذا سكت رجع فوسوس، فإذا سمع الإقامة ذهب حتى لا يسمع صوته، فإذا سكت رجع فوسوس) رواه مسلم، وفي لفظ له: (إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة ذهب حتى يكون مكان الروحاء).

❁ ومنها: شرف الخضر وعظيم منزلته عند الله تعالى، أولا: لوصفه بالعبودية، وثانيا: لإضافته إلى الرب - جل جلاله - حيث قال: ﴿ عبدنا ﴾ ، كقوله في النبي ﷺ: ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾.

❁ ومنها: أن العلم علمان: مكتسب ولَدُنِّي، أما المكتسب فهو العلم الإنساني، وهو الذي يحصله الإنسان بجده واجتهاده، إما من غيره، وذلك بالتعلم منه، وإما من نفسه، وذلك بالتفكر والتدبر، فإن نفس العاقل تجد من الفوائد بتفكر ساعة، ما لا تجده نفس الجاهل بتعلم سنة. وأما العلم اللدني فهو العلم الرباني، وذلك العلم الموهوب برحمة علام الغيوب، يمن الله به على من يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿ وعلمناه من لدنا علما ﴾، كقوله تعالى: ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾.

❁ ومنها: أن العلم النافع هو العلم الذي يرشد إلى الخير والهداية والصلاح، دون غيره من العلوم، كما قال: ﴿ على أن تعلمن ما علمت رشدا ﴾، وأعظمها وأجلها علم الكتاب والسنة، علم الفقه في الدين، ولهذا قال النبي ﷺ: (من يرد الله به خيرا يفقه في الدين)، وقال: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه).

❁ ومنها: تواضع المتعلم لمن يتعلم منه، ولو كان من يعلِّمُه أدنى مرتبة منه، مع أن التواضع مشروع - على وجه العموم - بين المسلمين، لقوله تعالى : ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ ، وقوله : ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ ، وقوله : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ ، ولكنه في حق المتعلم مع معلِّمه آكد .

❁ ومنها: تأدب المتعلم مع معلمه في الخطاب، وتلطفه معه في الكلام، لقول موسى للخضر: ﴿ هل أتبعك ﴾، حيث أخرج الكلام مخرج العرض والمشاورة، وكأنه يقول له: هل تأذن لي أن أتبعك وأتعلم منك؟ بخلاف أهل الكبر والغلظة والجفاء، الذين لا يظهرون للمعلم افتقارهم إلى علمه ومتابعته، بل يدّعون أنهم يتعاونون معه، بل ربما ظن أحدهم أنه يعلم معلمه، وهو جاهل جدا، فإظهار الحاجة للمعلم، والرغبة في تعليمه من أنفع شيء للمتعلم.

❁ ومنها : أنه ينبغي للعالم - إذا رأى المتعلم لا يحتمل شيئا من العلم - أن يعتذر إليه في عدم تعليمه إياه، لأنه قد يضره أكثر مما ينفعه.

❁ ومنها: أن من ليس عنده صبر على صحبة العالم وطلب العلم، وحسن الثبات على ذلك، فليس بأهل لتلقي العلم، لقول الخضر لموسى : ﴿ إنك لن تستطيع معي صبرا ﴾، فمن لا صبر له لا ينال العلم، ومن تذرع بالصبر ولازمه أدرك به مطلوبه.

❁ ومنها: أن من أعظم أسباب تحصيل الصبر إحاطتَه علما، وخبرتَه بذلك الأمر، الذي يريد الصبر عليه؛ لقوله: ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ﴾. فمن لا علم له بما يريد، أو لا خبرة له بفائدته وثماره لم يحقق سبب الصبر، فلن يصبر عليه.

❁ ومنها: أنه ينبغي للمرء أن يعلق أموره بمشيئة الله تعالى، فإنه إن فعل ذلك حصّل فوائد: أولها: تيسير الأمر ببركة ذلك، وثانيها: حصول كمال التوكل بتفويض الأمر إلى الله تعالى، والتبرؤ من الحول والقوة، وثالثها: السلامة من إخلاف الوعد، فيما لو قدر الله ألا يتحقق هذا الأمر.

❁ ومنها: جواز اشتراط المتبوع على التابع ما يرى فيه مصلحة في اتباعه.

❁ ومنها: أن الأصل في الشروط أنها ملزمة، وذلك ما لم تخالف الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾، وهو يعم جميع العقود، أصلا ووصفا. ولقول النبي ﷺ: (المسلمون على شروطهم، إلا شرطا أحل حراما، أو حرم حلالا) رواه أبو داود وغيره (صحيح الجامع).

❁ ومنها: عدم المؤاخذة بالنسيان، حيث قال: ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا ﴾، والنسيان في حق الله تعالى يعذر به المرء مطلقا فلا إثم، ولا ضمان فيه بحال، وفي حق الغير يعذر به في عدم الإثم، بخلاف ضمان الحقوق المتلفة نسيانا، فإنها تضمن؛ لأن حقوق الخلق مبنية على المشاحة، وحقوق الخالق مبنية على المسامحة.

❁ ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ما عفا وسهل، ولا ينبغي له أن يشق عليهم، فيكلفهم ما لا يطيقون، لأن ذلك مدعاة للنفور منه والسآمة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾، وقوله: ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾.

❁ ومنها: إجراء أحكام الناس في الدنيا على الظاهر، سواء كان في الأموال أو الدماء أو غيرها، فإن موسى أنكر على الخضر خرق السفينة وقتل الغلام؛ لأن ظاهر هذه الأمور منكر، فلم يَسَعْ موسى عليه السلام الصبر عليها، والسكوت عنها. ولهذا لم يلتفت إلى الشرط العارض الذي اشترطه على نفسه من الصبر وعدم الإنكار.

❁ ومنها: أنه (ليس الخبر كالمعاينة)، و(ما راءٍ كمن سمعا) ، فالتقرير النظري شيء، والواقع العملي شيء آخر، ولهذا اشترط موسى على نفسه الصبر وعدم عصيان أي أمر للخضر، فلما رأى الأمر الواقع لم يصبر ، وخالف ذلك الشرط، وقريب من ذلك، لما قال الله له: ﴿ فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ﴾ فإنه لم يلق الألواح ابتداءً من الغضب، مع أنه ـ تعالى ـ أصدق القائلين، فلما رأى قومه عيانا ﴿ ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾.

❁ ومنها: أن (الثلاث) لها اعتبار في التكرار ونحوه، فيعذر في الأولى، وتقام عليه الحجة بالثانية، ولا يعذر بالثالثة، ويؤيده أن الله جعل الطلاق مرتين، والفراق بعد الثالثة، فقال: ﴿ الطلاق مرتان ﴾ ثم قال: ﴿ فإن طلقها ﴾ أي الثالثة ﴿ فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ﴾، وهكذا فارق الخضر موسى بعد الثالثة، حيث قال: ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا ﴾، ثم قال: ﴿ هذا فراق بيني وبينك ﴾.

❁ ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه ـ في غير معصية ـ سبب في بقاء الصحبة بينهما ولزومها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة، فبسبب مخالفة موسى للخضر حصلت المفارق.

❁ ومنها: أنه ينبغي للمرء ألا يبادر بإنكار ما لم يستحسنه، فلعل فيه سرا لا يعرفه، وهذا أصل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو التثبت والتحقق من كونه منكرا، ومن ذلك: لو رأى شخصا يأكل في رمضان، فلا ينكر عليه مباشرة، حتى يتحقق أنه ليس معذورا، لأنه قد يكون مريضا أو مسافرا، والمرأة قد تكون حائضا أو نفساء، ونحو ذلك.

❁ ومنها: أن المخطئ ينبه على خطئه، ويُعفى عنه حتى يتحقق إصراره، ثم يؤدب بما يكون مناسبا.

❁ ومنها: جواز ركوب البحر عند غلبة الظن في السلامة.

❁ ومنها: جواز العمل في البحر بالصيد، أو استخراج الجواهر والحلية كاللؤلؤ والياقوت والمرجان، أو نقل الركاب والبضائع والمتاع من ساحل إلى آخر.

❁ ومنها: أن القتل من كبائر الذنوب، ولهذا شدد موسى فيه فقال: ﴿ لقد جئت شيئا نكرا ﴾، كيف لا وقد قال الله تعالى : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ﴾، وقال : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾، وقال النبي ﷺ: (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق) رواه ابن ماجه. (صحيح الجامع).

❁ ومنها: أن القصاص حق، ولهذا قال موسى: ﴿ بغير نفس ﴾، مما يدل على أن قتلها بالنفس معروف، وليس بمنكر، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ أن من قتل نفسا بغير نفس ﴾ ، ومثلها قوله تعالى: ﴿ أن النفس بالنفس ﴾، وقوله: ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر ... ﴾ الآية. وقول النبي ﷺ : (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة) رواه البخاري ومسلم.

❁ ومنها: أنه يجوز للغريب أن يطلب حق الضيافة: من طعام وشراب ونحوه ، قال النبي ﷺ: (الضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة) رواه البخاري.

❁ ومنها: أن صنع الجميل، وبذل المعروف لا يُترك ولو مع اللئام، فإن ذلك حق لهم، وإن كانوا هم فرطوا فيما يجب عليهم، فيفعل معهم الجميل، وربما يحملهم ذلك على الخجل والاستحياء من فعلهم، ويدعوهم إلى إصلاح حالهم. كما قال النبي ﷺ ـ فيمن أخطأ فتصدق على سارق ثم زانية ثم غني، فحمد الله، ثم أتي فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله) متفق عليه.

❁ ومنها: إثبات الإرادة للجماد، حيث قال: ﴿ جدارا يريد أن ينقض ﴾، وليست الإرادة خاصة بالحيوان، أو بالإنسان، وشواهد ذلك كثيرة من القرآن والسنة، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾، وقوله: ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منها الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾، وقوله: ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾، ومن السنة قول النبي ﷺ: (هذا أحد جبل يحبنا ونحبه) متفق عليه، وفي صحيح مسلم قال النبي ﷺ: (إني لأعرف حجرا كان يسلم علي بمكة)، وثبت في صحيح البخاري: (حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ؛ جزعا لفراقه). فميل الجدار، وتسبيح الأشياء عموما، وخشية الحجارة من الله، وإباء وإشفاق السموات والأرض والجبال، ومحبة الجبل، وتسليم الحجر، وحنين الجذع كل ذلك بإرادة، وإدراك يعلمه الله ـ تعالى ـ ونحن لا نعلمه، كما قال: ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾.

قال محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ في " تفسيره ": وزعم من لا علم عنده أن هذه الأمور لا حقيقة لها، وإنما هي ضرب أمثال زعم باطل، لأن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن معناها الواضح المتبادر إلا بدليل يجب الرجوع إليه.اهـ.

❁ ومنها: جواز الهجر إذا كان فيه مصلحة. والأصل تحريم هجر المسلم، فيما زاد على ثلاث.

❁ ومنها: فضل خدمة الصالحين ومن له صلة بهم، وذلك لأن الخضر علل إقامة جدارهما، ثم استخراج كنزهما بأن أباهما كان صالحا.

❁ ومنها: جواز أخذ الأجرة على العمل المباح. حيث عرض موسى على الخضر أخذ الأجرة على إصلاح الجدار.

❁ ومنها: أن ملك السفينة أو الآلة أو السيارة أو الدكان لا يمنع المرء من وصف المسكنة، إذا كان لا يجد ما يكفيه منه. فإن الله تعالى وصف أصحاب السفينة بأنهم مساكين، مع أنهم يملكون سفينة.

❁ ومنها: أن الغصب حرام، لأنه من أخذ أموال الناس بالباطل. وقد قال تعالى: ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾، وقال النبي ﷺ: (من اقتطع قيد شبر من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين) متفق عليه، وفي رواية عند مسلم: (من اقتطع أرضا ظالما لقي الله وهو عليه غضبان).

❁ ومنها: أنه يجوز إتلاف بعض مال الغير أو تعييبه لوقاية باقيه، كإتلاف بعض مال اليتيم لحفظ باقيه، وكتعييب مال المودِع لبقائه. ومثله هنا ما حصل من الخضر حيث خرق سفينة المساكين لتبقى وتسلم من غصبها كلها.

❁ ومنها: أن المشروع عند تعارض مفسدتين ارتكاب الأخف منهما، ولهذا لما دار الأمر على أخذ السفينة كاملا، أو خرقها وسلامتها ثم إصلاحها، فعل الأخف منهما وهو الثاني.
❁ ومنها: ما جبل الله عليه أصفياءه - من الأنبياء والرسل ومن اقتدى بهم - على نصح الخلق، والشفقة عليهم، والرأفة بهم، فإن الذي حمل موسى على المبادرة بالإنكار هو الالتهاب والحمية للحق، وكمال النصح للخلق، ولهذا قال للخضر: ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها ﴾ ولم يقل: (لتغرقنا) فنسي نفسه، واشتغل بغيره، في هذه الحال التي يقول فيها كل أحد : (نفسي نفسي)، ولا يلوي على مال ولا ولد، وهي حال الغرق.
❁ ومنها: حسن الأدب مع الله تعالى، بحيث لا يضاف إليه ما يستهجن لفظه، وإن كان الكل بتقديره وخلقه - سبحانه وتعالى - ، لقول الخضر عن السفينة: ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ ، وقال عن الجدار: ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ﴾، فأضاف بلوغ الأشد إليه تعالى، ولم يضف إليه عيب السفينة، ونظيره قوله تعالى: ﴿ والذي هو يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين ﴾، فنسب الخير إليه، ولم يقل في المرض: وإذا أمرضني، ومثله قوله تعالى عن الجن: ﴿ وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ حيث نسبوا الرشد إلى ربهم، ولم يصرحوا بفاعل الشر، مصداقا لقول النبي ﷺ: (والخير بيديك والشر ليس إليك) رواه مسلم.
❁ ومنها: أن الله تعالى يحفظ الولد بسبب صلاح والده، كما قال تعالى: ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان أبوهما صالحا ﴾. ونظيره ما قيل في قوله تعالى: ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ﴾، فجعل التقوى سببا في عدم الخوف على الذرية من بعد، إشارة إلى أن الله يحفظهم بها.
❁ ومنها: أنه يجب عمارة ما يخشى من سقوطه ضرر. ويحرم إهماله إلى أن يخرب.
❁ ومنها: جواز دفن المال في الأرض ليحفظ.
❁ ومنها: أن لا ينبغي للصاحب أن يفارق صاحبه، ويترك صحبته حتى يبلغ منه العذر، كما فعل الخضر مع موسى.
❁ ومنها: إطلاق القرية على المدينة لقوله: ﴿ أهل قرية ﴾، ثم قوله: ﴿ لغلامين يتيمين في المدينة ﴾، وشواهد ذلك في القرآن كثيرة، كقوله - تعالى - عن قوم لوط: ﴿ إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴾، ثم قوله: ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾، ثم قوله: ﴿ وقال نسوة في المدينة ﴾.

(جملة من المسائل التي تتعلق بقصة موسى مع الخضر)

❁ أولا: من هو موسى صاحب الخضر؟
والجواب: هو موسى بن عمران رسول بني إسرائيل، أخو هارون عليهما الصلاة والسلام، صاحب التوراة والآيات الشهيرة، وإنما ذكرنا ذلك مع ظهوره لوجود خلاف قديم، يدل له ما ثبت في صحيح البخاري ومسلم عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل. قال ابن عباس: كذب عدو الله. حدثنا أبي بن كعب - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم ؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه) إلى أن ذكر أن موسى لما لقي الخضر سلم عليه، فقال: (وأنّى بأرض قومك السلام: قال أنا موسى، قال موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم). الحديث.
❁ ثانيا: لم سمي الخضر بذلك؟
والجواب: ما رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هي تهتز من تحته خضراء). والمراد بالفروة ها هنا الحشيش اليابس.
❁ ثالثا: هل الخضر حي أم مات؟
الجواب: ذكر بعضهم أنه حي وباق إلى الآن، وذكروا في ذلك حكايات وآثارا عن بعض السلف، وجاء ذكره في بعض الأحاديث التي لا تصح، ولهذا رجح الإمام البخاري وجمهور العلماء من المحدثين وغيرهم أنه مات، واحتجوا على ذلك بأمور:
❁ منها: قوله تعالى: ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ﴾.
❁ ومنها: قول النبي ﷺ يوم بدر: (اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض).
❁ ومنها: ما جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ أخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقى ممن على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف).
❁ ومنها: أنه لم ينقل أنه حضر إلى رسول الله ﷺ، ولا حضر عنده، ولا قاتل معه، ولو كان حيا لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه، لأنه عليه الصلاة والسلام - كان مبعوثا إلى جميع الثقلين: الإنس والجن. وقد قال ﷺ: (لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي) أما ما ذكر من حكايات فإنها لا حجة فيها، ولا يعارض بها الكتاب والسنة.
❁ رابعا: فإن قيل: ثبت عن بعض الصالحين أنه رأى الخضر! فكيف الجواب عن ذلك؟
فالجواب: ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى بقوله: " وكذلك الذين يرون الخضر أحيانا هو جني رأوه، وقد رآه غير واحد ممن أعرفه وقال له: (إنني الخضر)، وكان ذلك جنيا لبّس على المسلمين الذين رأوه، وإلا فالخضر الذي كان مع موسى عليه السلام مات، ولو كان حيا على عهد رسول الله ﷺ لوجب عليه أن يأتي إلى النبي ﷺ، ويؤمن به، ويجاهد معه، فإن الله فرض على كل نبي أدرك محمدا أن يؤمن، ويجاهد معه، كما قال الله تعالى: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يبعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق على أمته؛ لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه، ولم يذكر أحد من الصحابة أنه رأى الخضر، ولا أنه أتى إلى النبي ﷺ، فإن الصحابة كانوا أعلم وأجل قدرا من أن يلبس الشيطان عليهم، ولكن لبس على كثير من بعدهم، فصار يتمثل لأحدهم في صورة النبي، ويقول: أنا الخضر،

وإنما هو شيطان، كما أن كثيرا من الناس يرى ميته خرج، وجاء إليه، وكلمه في أمور، وقضاء حوائج، فيظنه الميت نفسه، وإنما هو شيطان تصور بصورته. اهـ.
وقال الحافظ أبو الخطاب بن دحية ـ رحمه الله تعالى ما ملخصه ـ : وأما رواية اجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيته لأهل البيت فلا يصح من طرقها شيء، ولا يثبت اجتماعه مع أحد من الأنبياء إلا مع موسى. وجميع ما ورد في حياته لا يصح منه شيء، باتفاق أهل النقل، وأما ما جاء من المشايخ فهو مما يتعجب منه، كيف يجوز لعاقل أن يلقى شيخا لا يعرفه فيقول له: أنا فلان فيصدقه؟
❁ خامسا: هل الخضر نبي أو عبد صالح؟
اختلف أهل العلم في نبوة الخضر عليه السلام، وقد احتج من قال بنبوته بقوله تعالى: ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ فظاهر هذا أنه فعله بأمر الله، والأصل عدم الواسطة، والمعنى: أنه أوحي إليه فعل ما فعل، من خرق السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار، والوحي لا ينزل إلا على نبي، كما قال تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾، واحتجوا بقوله: ﴿ فوجدا عبدا من عبادنا ﴾ فالتنكير للتفخيم، والإضافة للتشريف، وقوله: ﴿ آتيناه رحمة منا وعلمناه من لدنا علما ﴾، أي خاصا وهو علم الغيب، الذي تقدم أن الله اختص به، ولم يطلع أحدا على شيء منه إلا لرسول، فتعين أن يكون الخضر رسولا.
وقيل: ليس برسول ولا نبي، إذ لا دليل قاطع بذلك، والأصل عدمه، ولا يلزم من العلم اللدني أن يكون عن رسالة أو نبوة، فقد يكون إلهاما أكرمه الله به، كما حصل لأم موسى في قوله: ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ... ﴾ الآية.
قال صديق حسن خان في تفسيره " فتح البيان ": والحق ما ذكرناه عن البخاري وأضرابه في ذلك، ولا حجة في قول أحد كائنا من كان إلا الله سبحانه ورسوله ﷺ. ولم يرد في ذلك نص مقطوع به، ولا حديث مرفوع إليه ﷺ، حتى يعتمد عليه، ويصار إليه، وظاهر الكتاب والسنة نفي الخلد، وطول التعمير لأحد من البشر، وهما قاضيان على غيرهما، ولا يقضي غيرهما عليهما، ومن قال: إنه نبي أو مرسل أو حي باق لم يأت بحجة نيرة، ولا سلطان مبين، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل .اهـ. والله تعالى أعلم.
❁ سادسا: هل يجوز قتل من يتوقع منه قتل أنفس كثيرة، من باب دفع أغلظ الضررين بأخفهما. قياسا على فعل الخضر مع الغلام؟
الجواب: قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في "الفتح" : وأما من استدل به على جواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما فصحيح، لكن فيما لا يعارض منصوص الشرع، فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممن يتوقع منه أن يقتل أنفسا كثيرة قبل أن يتعاطى شيئا من ذلك، وإنما فعل الخضر ذلك لإطلاع الله تعالى عليه. اهـ.
❁ سابعا: كيف جاز أن يقتل الخضر الغلام وهو غير مكلف؟
الجواب: قال ابن بطال ـ رحمه الله ـ كما في "الفتح" : قول الخضر (وأما الغلام فكان كافرا) هو باعتبار ما يؤول إليه أمره أن لو عاش حتى يبلغ، واستحباب مثل هذا القتل لا يعلمه إلا الله، ولله أن يحكم في خلقه بما يشاء، قبل البلوغ وبعده. اهـ.
❁ ثامنا: هل يجوز لأحد أن يخرج عن شريعة محمد ﷺ، احتجاجا بما فعل الخضر مع موسى؟
الجواب: قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في "الفرقان" : (فلفظ الشرع والشريعة إذا أريد به الكتاب والسنة لم يكن لأحد من أولياء الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه، ومن ظن أن لأحد من أولياء الله طريقا إلى الله غير متابعة محمد ﷺ باطنا وظاهرا فهو كافر، ومن احتج في ذلك بقصة موسى مع الخضر كان غالطا من وجهين:
❁ أحدهما: أن موسى لم يكن مبعوثا إلى الخضر، ولا كان يجب على الخضر اتباعه، فإن موسى كان مبعوثا إلى بني إسرائيل، وأما محمد ﷺ فرسالته عامة لجميع الثقلين ـ الجن والإنس ـ ولو أدركه من هو أفضل من الخضر، كإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم اتباعه، فكيف بالخضر، سواء كان نبيا أو وليا، ولهذا قال الخضر لموسى: (إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمكه لا أعلمه). وليس لأحد من الثقلين الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ أن يقول له مثل هذا.
❁ الثاني: أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفا للشريعة بل كان موافقا لها، ولكن موسى ـ عليه السلام ـ لم يكن عَلِم الأسباب التي تبيح ذلك، فلما بيّنها له وافقه على ذلك، فإن خرق السفينة ثم ترقيعها لمصلحة أهلها خوفا من الظالم أن يأخذها إحسان إليهم، وذلك جائز، وقتل الصائل جائز، وإن كان صغيرا، ومن كان تكفيره لأبويه لا يندفع إلا بقتله جاز قتله. ولهذا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لنجدة الحروري لما سأله عن قتل الغلمان: (إن كنت علمت منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم، وإلا فلا تقتلهم). أما الإحسان إلى اليتيم بلا عوض، والصبر على الجوع فهذا من صالح الأعمال، فلم يكن في ذلك شيء يخالف شرع الله. اهـ. قلت: قصة ابن عباس مع الحروري أخرجها مسلم وغيره.

(قصة ذي القرنين)

﴿ ويسألونك ﴾ أي مشركو العرب سؤال تعنت، بأمر من اليهود كما تقدم ﴿ عن ذي القرنين ﴾ وهو الرجل الذي طاف الأرض مشرقا ومغربا ﴿ قل ﴾ لهم يا رسول الله ﴿ سأتلو عليكم منه ذكرا ﴾ أي سأذكر لكم طرفا من خبره، وبعضا من قصته، لا كل خبره، ليكون تذكرة لكم، وعبرة لمن بعدكم ﴿ إنا مكنا له في الأرض ﴾ بالقوة والرأي، والتدبير والسعة في المال، والاستظهار بالعدد ، وعظم الصيت والشهرة ﴿ وآتيناه من كل شيء ﴾ أي يحتاج إليه في تدبير شؤون الملك ، فهو من العام المراد به الخاص، كقوله تبارك تعالى عن بلقيس ملكة سبأ : ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ ، فإنها لم تؤت ما أوتي سليمان ، ولكن المعنى : من كل شيء تحتاج إليه في تدبير شؤون ملكها، وكقوله: ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ ومعلوم أنها لم تدمر السموات والأرض والعرش والكرسي، ولكن المعنى : تدمر كل شيء أمرت بتدميره ، ولهذا قال بعدها : ﴿ فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم ﴾ لأنها لم تؤمر بتدميرها كاملا ، وقوله: ﴿ سببا ﴾ أي طريقا موصلا إليه ، وأصل (السبب) ما يتوصل به إلى المقصود ، من علم أو قدرة أو آلة ، ومنه الحبل، كما قال تعالى : ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ ، أي بحبل إلى السقف ليشنق نفسه.
﴿ فأتبع سببا ﴾ أي فأراد بلوغ المغرب فتبع سببا ، أي سلك طريقا يوصله إليه ﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس ﴾ أي أقصى ما يسلك فيه من الأرض من جهة المغرب ﴿ وجدها ﴾ أي رأى الشمس ﴿ تغرب في عين حمئة ﴾ أي ذات حمْأة، وهو الطين الأسود ، و(

العين) تطلق في اللغة على ينبوع الماء، والينبوع: الماء الكثير، فاسم العين يصدق على البحر لغة أيضا، وهذا باعتبار ما يظهر للرائي ، ويبدو للناظر ، كما ترى الشمس عند الغروب تسقط في البحر ، وتغرب فيه ، وذلك لبعدها العظيم عن الأرض ، وإلا فإن الشمس أكبر من الأرض ـ كما ذكر ذلك علماء الفلك ـ بأكثر من مليون مرة ، والإخبار عن الشيء باعتبار ما يظهر منه عند المشاهدة جائز ، وإن كانت حقيقته على خلاف ذلك، وله شواهد من القرآن ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ فهذا بحسب نظر الرائي ، وإلا فهو على طبيعته مستدير ومكور، ومثله قوله تعالى: ﴿ فأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ ، أي بحسب ما يظهر لمن يراهم ويشاهدهم ، فإنه يراهم مائة ألف أو يزيدون عليها ، على أحد الوجوه في تفسيرها ، لا باعتبار علم الله لهم، فإنه ـ تعالى ـ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، ولا يرد عيه الشك أبدا. وقوله: ﴿ ووجد عندها قوما ﴾ أي جماعة من الناس.

ثم أشار تعالى إلى أنه مكنه منهم ، وأظهره عليهم ، وحكَّمه فيهم ، وجعل له الخيرة في شأنهم، فقال تعالى : ﴿ قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب ﴾ بالقتل والضرب، والحبس والأسر ونحوه ﴿ وإما أن تتخذ فيهم حسنا ﴾ بالعفو والصفح عنهم . وظاهر هذا أنهم كفار أو فساق، أو فيهم شيء من ذلك؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق لم يرخص له في تعذيبهم.

فظهر بذلك ما عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ما استحق به هذا المدح، وذاك والثناء، ولهذا بين الله تعالى عدله وإنصافه فيهم حيث جعلهم فريقين: ﴿ قال أما من ظلم ﴾ بالبغي والفساد في الأرض بالشرك والمعاصي﴿ فسوف نعذبه ﴾ في الدنيا ﴿ ثم يرد إلى ربه ﴾ في الآخرة ﴿ فيعذبه عذابا نكرا ﴾ أي شديدا وجيعا، منكرا لم يعهد مثله، و(النكارة) هنا باعتبار من وقع عليه هذا العذاب ، فإنه يستنكره لفظاعته وبشاعته ، لا باعتبار فعل الله تعالى ، فإنه تعالى لا يفعل إلا ما اقتضته الحكمة والعدل ، ويأمر بالمعروف والقسط ، ولا يأمر بالفحشاء والمنكر ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾، وقال: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾.

ثم بين جزاء الفريق الآخر، فقال : ﴿ وأما من آمن ﴾ بالله ﴿ وعمل ﴾ عملا ﴿ صالحا فله ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ جزاء الحسنى ﴾ أي فله الحسنى جزاءً له على إحسانه ، وهي الحياة الطيبة في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ، وقال : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ ، ، وذلك بدخول الجنة ، وله زيادة على ذلك ، وهي النظر إلى وجه الله الكريم ، ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ ، فضلا من الله وإحسانا ، كما قال تعالى: ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾. ﴿ وسنقول له من أمرنا ﴾ أي مما نأمر به ﴿ يسرا ﴾ أي قولا ذا يسر، وليس بالصعب الشاق. وهذا يدل على أنه كان من الملوك الصالحين، ومن عباد الله المصلحين، وأوليائه العادلين العالمين، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد بما يليق بحاله.

﴿ ثم أتبع سببا ﴾ أي سلك طريقا آخر راجعا من مغرب الشمس إلى مشرقها ﴿ حتى إذا بلغ مطلع الشمس ﴾ أي أقصى ما يسلك فيه من الأرض من جهة المشرق ﴿ وجدها ﴾ أي وجد الشمس ﴿ تطلع على قوم ﴾ أي جماعة من الناس ﴿ لم نجعل لهم من دونها سترا ﴾ أي لم نجعل لهم شيئا من المباني أو الجبال أو الشجر يستظلون به من حرارة الشمس ﴿ كذلك ﴾ أي أمر ذي القرنين كما وصفناه لك، في رفعة المكان، وبسطة الملك ﴿ وقد أحطنا بما لديه ﴾ أي بما عند ذي القرنين ﴿ خبرا ﴾ أي علما والمعنى: نحن مطلعون على جميع أحواله ، وأحوال جيشه ، وشؤون ملكه ، لا يخفى علينا منها شيء ، وإن تفرقت أممهم ، وتقطعت بهم الأرض ، وفي التذييل بذلك إشارة إلى كثرة ما لديه من العدد والعدد، بحيث لا يحيط بها إلا علمه تعالى .

﴿ ثم أتبع سببا ﴾ أي ثم سلك طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب ﴿ حتى إذا بلغ بين السدين ﴾ أي الجبلين الذين سد ما بينهما ﴿ وجد من دونهما ﴾ أي من أمامهما ﴿ قوما ﴾ أي جماعة من الناس ﴿ لا يكادون يفقهون قولا ﴾ أي لا يقاربون يفهمون كلاما لأحد غيرهم، لأن لغتهم غريبة، وقرئ: ﴿ يُفقهون ﴾ بضم الياء وكسر القاف أي لا يقاربون يُفهِمون كلامهم لأحد، ففهمهم وتفهيمهم فيه مشقة وصعوبة، وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية ما فقه به قولهم، فراجعهم وراجعوه، واشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج، وهما أمتان عظيمتان من بني آدم ﴿ قالوا يا ذا القرنين ﴾ نادَوه بلقبه تعظيما له ﴿ إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ﴾ أي في أرضنا بالقتل وأخذ الأموال والإضرار بأهلها ﴿ فهل نجعل لك خرجا ﴾ أي جُعْلا وأجرة نخرجها لك من أموالنا، و(الخرْج) بسكون الراء هو المال والأجرة، كقوله تعالى: ﴿ أم تسألهم خرْجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين ﴾، وقوله: ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ﴾، وقوله: ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا ﴾.

﴿ على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ﴾ أي حاجزا يمنع خروجهم علينا ﴿ قال ما مكني فيه ربي خير ﴾ أي ما أعطاني الله من مال وملك، جعلني ممكنا منه، أفضل وأجل مما تريدون بذله لي ، فلا حاجة لي بأجرتكم هذه، كما قال نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿ أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾، ولهذا قال لهم ذو القرنين:﴿ فأعينوني بقوة ﴾ أي ساعدوني بعمال، وصناع وآلات ، فإن تفعلوا ذلك ﴿ أجعل بينكم وبينهم ردما ﴾ أي حاجزا حصينا ، وسدا منيعا ، يمنعهم من الوصول إليكم ، وتسلمون به من شرهم ﴿ آتوني زبر الحديد ﴾ أي ناولوني قطع الحديد ، فأعطوه ذلك، فبنى بقطع الحديد سدا عظيما ﴿ حتى إذا ساوى بين الصدفين ﴾ أي جانبي الجبلين ﴿ قال انفخوا ﴾ أي في الأكوار والحديد بما معهم من آلات عظيمة لذلك﴿ حتى إذا جعله ﴾ أي جعل قطع الحديد ﴿ نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا ﴾ أي ناولوني قطرا أفرغه عليه ، ليلصق بقطع الحديد ، و(القطر) هو النحاس المذاب، كما في قوله تعالى: ﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾، فناولوه ذلك، فأفرغه عليه، فالتصق بعضه ببعض، حتى صار كقطعة واحدة، قوية شديدة ملساء، ولهذا قال: ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ أي لم يستطع يأجوج ومأجوج أن يظهروا هذا السد، أي يعلوه ويقفزوا عليه لعلوّه وارتفاعه، لأنه بلغ رأس الجبلين ، ولملاسته أيضا، لأنه صار كقطعة حديد واحدة ﴿ وما استطاعوا له نقبا ﴾ أي ولم يستطيعوا ـ أيضا ـ خرقه، لقوته وصلابته وإحكامه.

وبعد أن مكنه الله من إنجاز هذا العمل الجليل، أسند النعمة إلى المنعم الحقيقي، وأضاف المنة لله وحده ﴿ قال هذا ﴾ أي التمكين من بناء هذا السد ﴿ رحمة من ربي ﴾ بكم؛ لأنكم تسلمون به من شر يأجوج ومأجوج، وهكذا تكون حال الخلفاء الصالحين إذا من

الله عليهم بالنعم الجليلة ازداد شكرهم واعترافهم بها لمسديها، كما قال سليمان ـ عليه السلام ـ لما أُحضِر له عرش ملكة سبأ العظيم من المسافة البعيدة، كما قال تعالى: ﴿ فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ﴾، بخلاف أهل الكبر والجبروت فإن النعم الكبار تزيدهم بطرا، كما حصل من قارون الذي آتاه الله ﴿ من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ﴾، حيث أعجب بما أعطاه الله، وجحد نعمته تعالى عليه، و﴿ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴾.

ثم قال: ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ أي بخرابه ودماره ، وخروج يأجوج ومأجوج، وذلك قرب قيام الساعة ﴿ جعله دكاء ﴾ أي صيره مستويا بالأرض، كقوله: ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ﴾، وقوله: ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ﴾، أي مساويا للأرض، تقول العرب: (ناقة دكاء) إذا كان ظهرها مستويا، لا سنام لها.

﴿ وكان وعد ربي حقا ﴾ أي كائنا وواقعا لا محالة، وهو يعم جميع وعوده، لأن المفرد مضاف من صيغ العموم، فيشمل الوعد بخروجهم آخر الزمان، وكذا الوعد بمجيء الساعة والقيامة، وكذا الوعد بالحساب والثواب والعقاب وغيره. وإنما كان وعده حقا، لأن عدم الوفاء بالوعد إما أن يكون عن عجز، أو كذب، والله تعالى منزه عن كل ذلك.

(فصل في ذكر جملة من الفوائد والأحكام المستنبطة من قصة ذي القرنين)

❁ منها : الإشارة إلى القيام بالأسباب، والأخذ بسنن الله ـ تعالى ـ في الكون من الجد والعمل، وعلى قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر، فإن فيما قصه الله ـ تعالى ـ على عباده عن ذي القرنين، من ضربه في الأرض، وسفره إلى مغرب الشمس، ثم مطلعها، ثم شمالها، وعدم فتوره، وما يجده من لذة في مواصلة الأسفار، وتجشم الأخطار، وركوب الأوعار والبحار، ثم إحرازه ذلك الفخار، الذي لا يشق له غبار، لأعظمَ عبرة لأولي الأبصار.

❁ ومنها: وجوب المبادرة إلى معالي الأمور من حداثة السن، وترك سفسافها، إذ من الخطأ التسويف فيه إلى الاكتهال، فإن أهل التاريخ ذكروا أن ذي القرنين تبوأ الملك في نحو العشرين من عمره، وحقق ما حققه وهو في ريعان شبابه، فهاجم أعظم ملوك عصره، وأكبر جيوشهم، ولم يقف في وجهه عَدد ولا عُدد، وخاض غمرات الردى غير هياب ولا وجل، وأضاف كل العالم الشرقي إلى المملكة اليونانية وهو شاب، وتوفي وهو في الثالثة والثلاثين من عمره.

❁ ومنها: أن من قدر على أعدائه، وتمكن منهم، فلا ينبغي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال، بل يعامل المحسن بإحسانه، والمسيء بقدر إساءته وعدوانه. كما حكى الله عن ذي القرنين، حيث كان مع القوم الذي وجدهم بمغرب الشمس في نهاية العدل، وغاية الإنصاف.

❁ ومنها: أن على الملك ـ إذا شُكِي إليه جور مجاورين ـ أن يبذل وسعه في تحقيق الراحة والأمن لرعيته، كما لبى ذو القرنين دعوة الشاكين في بناء السد.

❁ ومنها: أن على الملك التعفف عن أموال رعيته، والزهد في أخذ أجرة في مقابلة عمل يأتيه، ما أغناه الله عنه، فإن في ذلك حفظا لكرامته، وزيادة في محبته، كما امتنع ذو القرنين من أخذ الأجرة تعففا وتكرما.

❁ ومنها: التحدث بنعمة الله تعالى إذا اقتضاه المقام كقول ذي القرنين: ﴿ ما مكني فيه ربي خير ﴾، كما قال من قبل سليمان عليه السلام: ﴿ فما آتاني الله خير مما آتاكم ﴾.

❁ ومنها: العناية بتدعيم الأسوار والحصون في الثغور، وتقويتها بذوب الرصاص، ووضع صفائح النحاس أو الحديد خلال الصخور الصم، صدقا في العمل، ونصحا للخلق، لينتفعوا به على مر الأجيال، وتطاول الأزمان، فإن البناء غير المحكم الرصين ثمرته قليلة، ومنفعته يسيرة، لأنه عرضة للانهيار، في أي ساعة من ليل أو نهار، وربما ترتب عليه كثير من الأضرار.

❁ ومنها: تعريف الغير ثمرة العمل المهم، ليعرفوا قدره ، فيقوموا بشكره، كما قال ذو القرنين ـ بعد فراغه من بناء السد ـ: ﴿ هذا رحمة من ربي ﴾.

❁ ومنها: التذكير بالمصير الأخروي، بعد انتهاء الدور الدنيوي، لتطمح النفوس إلى ذلك العالَم العلوي، والنعيم الباقي، والخلود السرمدي ، وتستعد له من الآن ، قبل فوات الأوان ؛ ولذا قال: ﴿ فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء، وكان وعد ربي حقا ﴾.

❁ ومنها: الاعتبار بتخليد الذكر الجميل ، والثناء الحسن، فإن من تأمل في قصة ذي القرنين يتضح له جليا ما أنعم الله به عليه من حسن السجايا، وسمو المزايا، من الشجاعة، وعلو الهمة، والعفة، والعدل، ودأبه على توطيد الأمن لرعيته، وإثابته المحسنين، وتأديبه للظالمين، وغيره، كل ذلك بسبب حسن النية وصلاح العمل.

❁ ومنها: الاهتمام بتوحيد الكلمة، ولمّ الشمل لمن يملك أمما متباينة، وبلادا مترامية، كما كان يرمي إليه ذو القرنين ، فإنه دأب على توحيد الشعوب، ومزج تلك الأمم المختلفة ليربطها بصلات الحب والمودة، ويزيل عنها أسباب البغض والشحناء والعداوة.

(جملة من المسائل التي تتعلق بقصة ذي القرنين)

❁ أولا: من هو ذو القرنين؟

والجواب: قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في " الفرقان ": وكان أرسطو قبل زمن المسيح بثلاثمائة سنة، وكان وزيرا للاسكندر بن فيليس المقدون، وهو الذي تؤرَخ له تواريخ الروم واليونان، ويؤرِخ به اليهود والنصارى، وليس هذا هو ذا القرنين الذي ذكره الله في كتابه كما يظن بعض الناس أن أرسطو كان وزيراً لذي القرنين، لما رأوا أن ذلك اسمه الاسكندر، وهذا قد يسمى بالاسكندر فظنوا أن هذا ذاك، كما يظنه ابن سينا وطائفة معه، وليس الأمر كذلك، بل هذا الاسكندر المشرك الذي كان أرسطو وزيره متأخر عن ذلك، ولم يبن هذا السد، ولا وصل إلى بلاد يأجوج ومأجوج، وهذا الاسكندر الذي كان أرسطو من وزرائه يؤرخ له تاريخ الروم المعروف. اهـ.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في " إغاثة اللهفان " في الكلام على الفلاسفة: ومن ملوكهم الاسكندر المقدوني وهو ابن فيليس، وليس بالاسكندر ذي القرنين الذي قص الله تعالى نبأه في القرآن بل بينهما قرون كثيرة، وبينهما في الدين أعظم تباين، فذو القرنين كان رجلا صالحا موحدا لله تعالى يؤمن بالله تعالى، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكان يغزو عباد الأصنام، وبلغ

مشارق الأرض ومغاربها، وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج، وأما هذا المقدوني فكان مشركا يعبد الأصنام هو وأهل مملكته، وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة، والنصارى تؤرخ له، وكان أرطاطاليس وزيره، وكان مشركا يعبد الأصنام. اهـ.

❁ ثانيا: لم سمي بذلك؟

والجواب: سمي بذلك إما لأنه طاف قرني الدنيا، أي جانبيها شرقا وغربا، وإما لكونه كان له قرنان، أي ضفيرتان من الشعر على رأسه، وإما أن ذلك كناية عن قوته وشجاعته، كما يسمى الشجاع كبشا؛ لأنه ينطح أقرانه، والكناية بالقرن عن القوة والسلطان معروفة عند اليهود السائلين عن خبره، ولا مانع من اجتماع هذه المعاني كسبب في تسميته بذلك. والله أعلم.

❁ ثالثا: هل ذو القرنين نبي أو عبد صالح؟

والجواب: اختلف أهل العلم في ذلك على قولين:

الأول: قالت جماعة: هو نبي، واحتجوا على ذلك بأمور:

منها: قوله تعالى: ﴿ إنا مكنا له في الأرض ﴾ وأولى أنواع التمكين هو في الدين، والتمكين الكامل في الدين هو النبوة.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وآتيناه من كل شيء سببا ﴾ ومن جملة الأشياء النبوة، فمقتضى العموم أن الله آتاه من النبوة أيضا سببا.

ومنها: قوله تعالى: ﴿ قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ﴾ وظاهر ذلك أن الله تكلم معه بلا واسطة، والذي يتكلم الله معه بلا واسطة لابد وأن يكون نبيا.

وقال آخرون: هو عبد صالح، وملِك عادل، وليس نبيا، إذ الأصل عدم النبوة، ولا دليل يقطع بذلك.

قال القاسمي - رحمه الله - في " تفسيره " : ولا يخفى ضعف الاستدلال بهذه الأدلة على نبوته، لأن مقام إثباتها يحتاج إلى تنصيص وتخصيص، وأما تعمق الجري وراء العمومات لاستفادة مثل ذلك، فغير مقنع، أما قوله: ﴿ قلنا يا ذا القرنين ﴾ فقدمنا أنه كناية عن تمكينه - تعالى - له منهم، لا أنه قول مشافهة، وإلا لو كان ذلك لكان مخيرا منه تعالى، وملقنا ما يفعل بهم، فأنى يسوغ له نقضه باجتهاد آخر، ولا يقال: إن الأصل في الإطلاق الحقيقة، لأنا نقول به، ما لم يمنع منه مانع، من نحو ما ذكرنا، وللتنزيل الكريم أسلوب خاص عرفه من أنعم النظر في بديع بيانه. اهـ.

(فصل في ذكر بعض ما ورد في شأن يأجوج ومأجوج)

قال الله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴾ ، أي وهم من كل مرتفع من الأرض يسرعون في النزول من الآكام والمرتفعات ليفسدوا في الأرض. كل هذا قبل النفخ في الصور بزمن لا يعلمه إلا الله جل وعلا.

وروى البخاري ومسلم في " صحيحيهما " من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوما فزعا يقول: (لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب: فقلت: يا رسول الله أنهلِك وفينا الصالحون ؟ فقال : نعم إذا كثر الخبث).

وفي الصحيحين أيضا من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ يقول الله - عز وجل - يوم القيامة: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: ابعث بعث النار. فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة؟ فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج).

وروى الإمام مسلم في " صحيحه " : عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا، فسألناه فقلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال الغداة، فخفضت فيه ورفعت، حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: غير الدجال أخوفني عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب جعْد قطط، عينه طافية، وإنه يخرج خَلَّةً بين الشام والعراق، فعاث يمينا وشمالا، يا عباد الله اثبتوا، قلنا: يا رسول الله ما لبثه في الأرض؟ قال: أربعين يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا: يا رسول الله فذاك اليوم الذي هو كسنة، أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: لا، اقدروا له قدره. قلنا: يا رسول الله فما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح. قال: فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذرا، وأمده خواصر، وأسبغه ضروعا، ويمر بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله، فتتبعه أموالهم فيصبحون ممحلين، ليس لهم من أموالهم شيء، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك . فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، قال: ويأمر برجل فيقتل، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين، رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل يتهلل وجهه، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله - عز وجل - المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعا يديه على أجنحة ملكين، فيتبعه فيدركه، فيقتله عند باب لدٍّ الشرقي، قال: فبينما هم كذلك إذ أوحى الله - عز وجل - إلى عيسى ابن مريم أني قد أخرجت عبادا من عبادي، لا يدان لك بقتالهم، فحرّز عبادي إلى الطور، فيبعث الله - عز وجل - يأجوج ومأجوج، وهم كما قال تعالى: ﴿ من كل حدب ينسلون ﴾، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله - عز وجل - فيرسل الله عليهم نغفا في رقابهم، فيصبحون فرسى، كموت نفس واحدة، فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتا إلا قد ملأه زهمهم ونتهم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل عليهم طيرا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، قال: ويرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوما، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة، ويقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، قال: فيومئذ يأكل النفر من الرمانة ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرّسَل، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر تكفي الفخذ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت، قال: فبينما هم على ذلك إذ بعث الله - عز وجل - ريحا طيبة تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم - أو قال كل مؤمن - ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة).

قال محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ في " تفسيره ": وهذا الحديث الصحيح قد رأيتَ فيه تصريح النبي ﷺ بأن الله يوحي إلى عيسى ابن مريم خروج يأجوج ومأجوج بعد قتله الدجال، فمن يدعي أنهم (روسية)، وأن السد قد اندك منذ زمان فهو مخالف لما أخبر به النبي ﷺ مخالفة صريحة لا وجه لها، ولا شك أن كل خبر ناقض خبر الصادق المصدوق ﷺ فهو باطل، لأن نقيض الخبر الصادق كاذب ضرورة كما هو معلوم. ولم يثبت في كتاب الله ولا سنة نبيه ﷺ شيء يعارض هذا الحديث الذي رأيت صحة سنده، ووضوح دلالته على المقصود. اهـ.

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ " في تفسيره " : وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثرا طويلا عجيبا في سِيَرِ ذي القرنين ، وبنائه السد، وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة، في أشكالهم، وصفاتهم، وطولهم وقصر بعضهم، وآذانهم. وروى ابن أبي حاتم أحاديث غريبة في ذلك لا تصح أسانيدها، والله أعلم. اهـ.

فجزى الله الإمامين ـ البخاري ومسلما ـ أحسن الجزاء، على نبذهما تلك الروايات، واشتراطهما الصحة في المرويات، فقد جنت الآثار المنكرة على الأمة أنكر الآثار، ومن طالع مقدمة صحيح مسلم صدق قوله: (إن راوي الضعاف غاش آثم مضل) والله المستعان.

(فائدة)

ما يُروَى عن بني إسرائيل من الأخبار المعروفة بـ(الإسرائيليات) له ثلاث حالات:

الأولى: يجب تصديقه، وهي ما إذا دل الكتاب والسنة الصحيحة على صدقه.

والثانية: يجب تكذيبه، وهي ما إذا دل الكتاب والسنة الصحيحة على كذبه.

والثالثة: لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه، وهي ما إذا لم يثبت في الكتاب ولا السنة صدقه ولا كذبه.

ثم قال تعالى: ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ ﴾ أي يوم يخرجون من السد بعد أن يجعله الله دكا ﴿ يموج في بعض ﴾ أي يتزاحمون تزاحما عظيما عند خروجهم حتى يركب بعضهم بعضا من كثرتهم، وقد ذكر ابن جرير ـ رحمه الله ـ بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما:ا أنه رأى صبيانا ينزو بعضهم على بعض يلعبون، فقال: هكذا يخرج يأجوج ومأجوج.

﴿ ونفخ في الصور ﴾ النفخة الثانية للبعث ، وذلك لأن النفخ نفختان: الأولى للموت والفناء، والثانية للبعث والجزاء ، قال تعالى : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ۞ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ۞ ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾ ، والنافخ هو إسرافيل عليه السلام ، و(الصور) قرن عظيم، لا يعلم قدره إلا الله تعالى ، فإذا نفخ فيه النفخة الثانية أعاد الله الأرواح إلى الأجساد، ثم حشرهم جميعا، وقد أخبر الله ـ تعالى ـ أن النفخ في الصور قريب، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾، وقال تعالى: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾. وقال النبي ﷺ: (كيف أنتم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى الجبهة ، وأصغى ينتظر متى يؤمر بالنفخ فينفخ ، قالوا : كيف نصنع ؟ قال قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا) رواه أحمد والترمذي (صحيح الجامع).

﴿ فجمعناهم ﴾ للحساب والجزاء ﴿ جمعا ﴾ عظيما لا نظير له ، نجمع فيه الملائكة والإنس والجن والوحوش والدواب ، كما قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ ، وقال : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ﴾، وقال : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ ، وقال : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾، وقال : ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾.

﴿ وعرضنا جهنم ﴾ أي أظهرناها وأبرزناها لهم، حتى يشاهدوا أهوالها ، وعظيم نكالها ، وشدة عذابها ، كما قال تعالى : ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ ، وقال: ﴿ وإذا الجحيم برزت ﴾، أي عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، ليتمتعوا بأغلالها وسعيرها وحميمها، ويتلذذوا بزمهريرها وسمومها، ليذوقوا من العذاب ما تصعق له القلوب، وتصم له الآذان، وقال : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ﴾، وقال : ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ أي قاربت أن ينفصل بعضها عن بعض من شدة حنقها، وعظيم غضبها على أهلها وأصحابها ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم ينفخ في الصور، يوم نجمعهم جميعا ﴿ للكافرين عرضا ﴾ توكيد أي عرضا فظيعا هائلا ، لا يعلم كنهه وحقيقته إلا الله تعالى ، وتخصيص العرض بهم مع أنها بمرأى من الجميع ، كما قال تعالى : ﴿ وجيء يومئذ بجهنم ﴾ ، لأنها أعدت من أجلهم خاصة ، وفي إراءتهم إياها على هذه الحال قبل دخولها مزيد نكاية بهم وتعذيب لهم ؛ لأنه أبلغ في تعجيل العذاب والهم ، والخوف والذعر ، بخلاف ما لو كانت مستترة ثم أدخلوا فيها ، قال تعالى واصفا هذا اليوم : ﴿ وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ ، وقال : ﴿ على الكافرين غير يسير ﴾، وقال: ﴿ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ﴾ ، وقال عن المؤمنين : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ﴾، وقال عنهم: ﴿ إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ﴾، وقال النبي ﷺ: (يؤتى بجهنم يومئذ، لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها) رواه مسلم. وكما أن جهنم تُعرض على الكافرين يوم القيامة، كذلك هم فإنهم ـ أيضا ـ يعرضون عليها، كما قال تعالى: ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار ﴾، وقال تعالى: ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي ﴾.

ثم بين أوصافهم التي استحقوا بها هذا الجزاء فقال : ﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ﴾ أي أن هذا العذاب إنما نالهم بسبب أنهم كانوا لا ينظرون في آيات الله، فيتفكرون فيها ، ويتدبرونها ، فيقودهم هذا إلى الاتعاظ والاعتبار بها ، ثم الانقياد لها والعمل بها ، فهم يتعامون عن آيات الله الدالة على توحيده ، وعن كلام الله ـ تعالى ـ وما فيه من عبر وعظات، وهداية وأحكام ، فيها صلاحهم في دنياهم وأخراهم ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾ أي وكانوا لا يطيقون أن يسمعوا ذكر الله ـ تعالى ـ الذي جاءهم به النبي ﷺ ، ومثلها قوله تعالى: ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾، وقوله تعالى: ﴿ يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع ، وما كانوا يبصرون ﴾، فكانوا يستثقلون سماعه،

وينفرون عنه إذا قرئ عليهم، فتغافلوا وتعامُّوا وتصامُّوا عن قبول الحق واتباع الهدى، بل كان يوصي بعضهم بعضا بالإعراض والتشاغل عنه، واللغو فيه، كما قال تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾، بل كانوا يسخرون ويلعبون إذا تليت عليهم آيات الله، كما قال تعالى : ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون، وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ﴾ أي لاهون مغنون، فعاقبهم الله بسبب ذلك فأعمى أبصارهم، فلا يبصرون الحق ، وإذا أبصروه لم ينتفعوا به ، وأصم آذانهم فلا يسمعون الحق ، وإذا سمعوه سماع إدراك لم ينتفعوا به ، وختم على قلوبهم ، فلا يعون الحق ولا ينتفعون به ، كما قال تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾، وقال : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾، وذلك لأنهم لم يستعملوا مشاعرهم فيما خلقت له ، وأعرضوا عن الآيات البينات ، والدلائل الواضحات على توحيد الله جل وعلا ، فكان وجود هذه الآلات كعدمه ، ولهذا إذا دخل أهل النَّار النار قالوا : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ ، مع أنهم يسمعون سماع إدراك ، ويعقلون عقل إدراك ، إذ لم يكن بهم صمم ولا جنون ، ولكن المعنى : لو كنا نسمع سماعا ننتفع به ، ونعقل عقلا ننتفع به ما كنا في أهل النار ، ولم يقتصر سبحانه على نفي البصر ، لأنه قد ينتفع بسمعه ، ولا السمع ، لأنه قد ينتفع ببصره ، بل جمع بينهما حتى يكونوا أشبه بالحجارة ، وهذا من بلاغة القرآن الكريم .

ثم بين تعالى أن ما اعتمدوا عليه من المعبودات الأخرى لا يجديهم شيئا عند الله، فلا يجلب لهم نفعا ، ولا يدفع عنهم ضرا فقال تعالى:

﴿ أفحسب الذين كفروا ﴾ أي أفظن الذين كفروا بي ﴿ أن يتخذوا ﴾ أي أن يجعلوا ويصيروا ﴿ عبادي ﴾ الذين هم خلق من خلقي ، وفي قبضتي ، وتحت سلطاني ﴿ من دوني ﴾ أي من دون الله تعالى ﴿ أولياء ﴾ يحبونهم كحب الله ، ويعبدونهم من دون الله ، كالملائكة والأنبياء والرسل والجن ونحوهم من المخلوقات ، أظنوا أن ذلك يجديهم نفعا ، أو يدفع عنه عذابا وضرا ؟ ، كلا لا ينفعهم ذلك شيئا، كما قال تعالى: ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ﴾، وقال: ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ﴾. فالاستفهام في الآية للإنكار والتوبيخ.

ولهذا أكد هذا الإنكار ، ببيان جزاء فعلهم فقال: ﴿ إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا ﴾ أي هيأناها منزلا لهم ينزلونها ، وجهزناها ضيافة لهم عند قدومهم ، وأصل (النزل) ما يقدم للضيف عند نزوله، والقادم عند قدومه إكراما له ، كما قال تعالى في المؤمنين : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ﴾ ، وإطلاقه على ما يقدم للكفار من العذاب من باب التهكم بهم ، إذ جعل جهنم وما يعذبون به فيها من الزقوم والغسلين ومقامع الحديد ضيافة لهم ، وفي ذكر النُّزل إشارة إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب والنكال ما هو أنموذج له ، لأن الضيف لا يستقر في منزل الضيافة ، بل ينتقل إلى ما هو أهنأ له في دار إقامته ، فكان ذلك تنبيها على أنهم سيذوقون ما هو أشد وأفظع ، وأدهى وأمر، كما قال تعالى: ﴿ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾ ، وقال : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ ، وقال : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يكفرون ﴾.

وقد بين تعالى في آيات أخَر أن أولياءهم هؤلاء سيتبرأون منهم ، ويكونون عليهم ضدا وجندا يحضرونهم للعذاب ، كما قال تعالى : ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتَّبَعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار ﴾ ، وقال : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ ، وقال : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴾ ، وقال : ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾، وقال تعالى: ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ﴾. ونحو ذلك من الآيات الكثيرة التي يذكر الله فيها أن من اتخذ من دون الله وليا ينصره ويواليه ضال خائب الرجاء غير نائل لمقصوده.

ثم قال تعالى :

﴿ قل ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء ، الذين يجادلونك بالباطل، من أهل الكتابين والمشركين على وجه التحذير والإنذار قل لهم : ﴿ هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ﴾ أي هل تريدون منا أن نخبركم بأخسر الناس أعمالا يوم القيامة ؟ الذين يجتهدون في العمل لينالوا به الأجر والثواب ، فينالون به الهلاك والعذاب ، فإذا أردتم وصفهم فاسمعوا، فإنهم ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ﴾ أي ضاع وبطل، وحبط واضمحل ﴿ وهم يحسبون ﴾ أي يظنون ويتوهمون ﴿ أنهم يحسنون صنعا ﴾ أي يصنعون شيئا حسنا ، يؤجرون عليه ، كقوله تعالى: ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ﴾، وقوله: ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾، وقوله: ﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾، ثم بين ـ سبحانه ـ السبب في هذه الخسارة الفادحة، وتلك التجارة البائرة بقوله: ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ﴾ أي إن هؤلاء الأخسرين أعمالا هم الذين كفروا بآيات الله الشرعية التي جاءت بها رسل الله، ومنها القرآن وما أخبرهم فيه من وجوب التوحيد، ومجيء يوم البعث والنشور ، وما فيه من الحساب والجزاء ، وكفروا أيضا بآيات الله الكونية المبثوثة في الآفاق وهي دلائل وحدانيته ، وكمال علمه وحكمته ، وعظيم فضله وواسع رحمته ، والتي يشاهدونها صباح مساء ، كما قال تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وكأيِّنْ من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾، وقال تعالى : ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت ﴾.

﴿ و ﴾ كفروا أيضا بـ﴿ لقائه ﴾ وهو البعث والنشور، وخروج الناس من القبور للحساب والجزاء ﴿ فحبطت أعمالهم ﴾ أي بطلت وفسدت بسبب ذلك ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ أي لا نجعل لهم يوم القيامة قيمة ولا مقدارا ، ولا قدرا ولا اعتبارا، لأن مدار الوزن على الأعمال، وقد حبطت، كما قال تعالى: ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا ﴾ وقال : ﴿ مثل الذين

كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شيء، ذلك هو الضلال البعيد ﴾، وقال: ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾، ولهذا قال النبي ﷺ : (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا إن شئتم ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾) متفق عليه .

قال أبو عبد الله القرطبي ـ رحمه الله ـ في " تفسيره ": وفي هذا الحديث من الفقه: ذم السمن لمن تكلفه، لما في ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم، بل يدل على تحريم أكل الزائد على قدر الكفاية، المبتغى به الترفه والسمن، وقد قال ﷺ: (إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الحبر السمين)، ومن حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: (خيركم قرني ثم الذين يلونهم ـ قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ـ ثم إن من بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن). وهذا ذم. وسبب ذلك: أن السمن المكتسب إنما هو من كثرة الأكل والشره، والدعة والراحة والأمن، والاسترسال مع النفس على شهواتها، فهو عبد نفسه، لا عبد ربه، ومن كان هذا حاله وقع لا محالة في الحرام، وكل لحم تولد من سحت فالنار أولى به. وقد ذم الله تعالى الكفار بكثرة الأكل فقال: ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾، فإذا كان المؤمن يتشبه بهم، ويتنعم تنعمهم في كل أحواله وأزمانه، فأين حقيقة الإيمان، والقيام بوظائف الإسلام، ومن كثر أكله وشربه كثر نهمه وحرصه، وزاد بالليل كسله ونومه، فكان نهاره هائما، وليله نائما. اهـ

قال محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ في " تفسيره " معقبا على كلام القرطبي السابق: وما تضمنه كلامه من الجزم بأن النبي ﷺ قال: (إن الله يبغض الحبر السمين) فيه نظر، لأنه لم يصح مرفوعا، وقد حسنه البيهقي من كلام كعب، وما ذكر من ذم كثرة الأكل والشرب والسمن المكتسب ظاهر وأدلته كثيرة (وحسب المؤمن لقيمات يقمن صلبه). اهـ.

ثم بين ـ سبحانه ـ مآلهم بسبب كفرهم وسائر معاصيهم إثر بيان أعمالهم المحبَطة بذلك الكفر فقال : ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ﴾ أي جزيناهم جهنم وهي النار ، دار العذاب والنكال ، والخزي والبوار، سميت بذلك لسوادها وبعد قعرها، جزيناهم بذلك بسبب أنهم كفروا بالله تعالى ﴿ واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ﴾ أي محلا للاستهزاء والسخرية ، بدلا من تعظيمها والإيمان بها واتباعها ، وذلك موجب لشدة المقت ، والغضب والنكال ، حيث لم يكتفوا بالكفر بها ، بل ارتكبوا هذه الحماقة التي هي أعظم أنواع الجحود والاحتقار.

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ ما أعده للكفار من العذاب في جهنم، جزاء كفرهم بربهم ، واستهزائهم بآياته ورسله ، أردف ذلك بما يرغب عباده الصالحين في الإيمان والعمل بما أعده لهم من جنات النعيم ، وما فيها من نعيم مقيم ، جزاء لهم على إحسانهم فقال تعالى:

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أي بما يجب الإيمان به ﴿ وعملوا ﴾ الأعمال ﴿ الصالحات ﴾ كالصلاة والزكاة والصوم والحج، وبر الوالدين والجهاد في سبيل الله ، والصدقة ، والإحسان إلى الناس ، وتعلم العلم الشرعي ، وذكر الله ، والدعوةِ إلى الله تعالى، أمرا بالمعروف ، ونهيا عن المنكر ، وصدقِ الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد والوعد ، وكف الأذى عن المسلمين ، وحفظ اللسان والجوارح والقلب عن المعاصي والآثام ، ونحو ذلك من أنواع الطاعات ، وأصناف القربات ، فعلوا ذلك ابتغاء مرضات ربهم ، وطمعا في مثوبته لهم ﴿ كانت لهم جنات الفردوس ﴾ لا جنة واحدة بل جنات ، أي بساتين عظيمة ، وحدائق كثيرة ، والفردوس أعلى الجنات ، وأوسطها وأفضلها ، كما قال النبي ﷺ : (إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس، فإنها أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقها عرش الرحمن تبارك وتعالى ، ومنه تفجر الأنهار) متفق عليه ، وفي لفظ ، (إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه سرُّ الجنة) رواه الطبراني (صحيح الجامع)، وسر الشيء هو لبُّه وخلاصته، وفي صحيح البخاري قال النبي ﷺ: (يا أم حارثة! إنها ليست جنة واحدة، ولكنها جنان كثيرة، وإن حارثة لفي الفردوس الأعلى)، وفي رواية الترمذي: (يا أم حارثة! إنها جنات في جنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى، والفردوس ربوة الجنة، وأوسطها، وأفضلها) (صحيح الجامع).

وقوله: ﴿ نزلا ﴾ أي منزلا لهم ، ينزلون فيها ، ضيوفا معززين مكرمين ، برحمة أرحم الراحمين ، يستريحون فيها من عناء الدنيا ومشقتها ، ومصائبها ونكدها.

(إشكال وجواب)

دلت هذه الآية على أن الإيمان والعمل الصالح يدخل بهما العبد الجنة، ومثلها قوله تعالى: ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾، وقوله: ﴿ وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾، ولكن يشكل على ذلك قول النبي ﷺ: (واعلموا أنه لن يدخل أحدَكم عملُه الجنة) قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: (ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل) رواه البخاري ومسلم.

والجواب: هو أن العمل سبب في دخول الجنة، لا عوض لها، فالنصوص المثبتة هي لبيان أن العمل سبب في دخول الجنة، بفضل الله ورحمته، والنصوص النافية هي لبيان أن العمل مهما بلغ فلن يكون عوضا لدخول الجنة، لأن الجنة أعظم وأجل من عمل العبد كما هو ظاهر.

﴿ خالدين فيها ﴾ أي ما كثين فيها أبد الآبدين ﴿ لا يبغون عنها حولا ﴾ أي لا يطلبون مكانا آخر يتحولون عنها إليه ، لأنهم بلغوا كمال النعيم فيها ، فلا مكان آخر أفضل منه ، وفيه إشارة إلى شدة حبهم لها ، وعظيم تعلقهم بها ، مع أن العادة الغالبة في الدنيا أن الإنسان يمل ويسأم الإقامة الدائمة في مكان واحد ، ويرغب في الانتقال عنه إلى مكان آخر تنزها وتفسحا ، فأخبر تعالى أن أهل الجنة مع هذا الدوام الأبدي ، والخلود السرمدي لا يختارون مكانا آخر يتحولون إليه ، لكمال نعيمهم فيها. وهذا المعنى جاء في آيات كقوله تعالى: ﴿ الذي أحلنا دار المقامة من فضله ﴾، ﴿ إن هذا لرزقنا ما له من نفاد ﴾، ﴿ عطاءً غير مجذوذ ﴾، ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾.

فجنة الفردوس نزل وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأيّ ضيافة أجل وأكبر وأعظم من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعيم للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة،، والطيور المغردة، والمآكل الشهية، والمشارب اللذيذة، والنساء الحسان، والخدم والولدان، أمثال اللؤلؤ والمرجان،

والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة، وأعلى ذلك وأفضله التنعم بالقرب من الرحمن، ونيل رضاه الذي هو أكبر نعيم أهل الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم، فلله تلك الضيافة، ما أجلها وما أكرمها، وما أجملها وأكملها، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تخطر على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علما حقيقيا يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها أفئدتهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاتا تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم أحقاب متكاثرة، ولكن الغفلة عمت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة وهت، فكان ما كان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

نسأل الله تعالى أن يقوي إيماننا، ويصلح أعمالنا، وأن يمن علينا بهذا الفضل العظيم ، ويرزقنا فردوسه الأعلى من غير سابق عذاب، ولا مناقشة حساب ، إنه أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين.

ثم نبه - تعالى - إلى عظيم شأن القرآن الكريم الذي قابله المشركون بالكفر والجحود والاستهزاء. فقال: ﴿ قل ﴾ أي قل لهم يا رسول الله ﴿ لو كان البحر ﴾ أي هذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿ مدادا لكلمات ربي ﴾ أي لو جعلت هذه الأبحر كلها حِبراً لكتابة كلام الله تعالى ﴿ لنفد البحر ﴾ أي فني وانتهى هذا البحر كله ، ولم يبق منه قطرة واحدة مع كثرته ﴿ قبل أن تنفد كلمات ربي ﴾ أي قبل أن تنتهي كلمات الله ، لأن البحر له حد محدود ، وله غاية ونهاية، بخلاف كلمات الله فإنها غير متناهية، ولا يمكن للمتناهي أن يحيط بغير المتناهي، ولهذا قال: ﴿ ولو جئنا بمثله ﴾ أي بمثل هذا البحر بحرا آخر يكون ﴿ مددا ﴾ للأول ، فإن الثاني سينفد أيضا قبل أن تنفد كلمات الله ، لأنه متناهي أيضا ، ومثل ذلك ما جاء في سورة لقمان في قوله تعالى : ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾. أي لفني البحر، وتكسرت الأقلام، وكلمات الله - تعالى - لا تزال باقية، وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات منقضية ومنتهية، وأما كلام الله فإنه من جملة صفاته، وصفاته - تعالى - كذاته غير مخلوقة، ولا حد لها ولا منتهى، فأي سعة وعظمة تصورتها القلوب فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى، كعلمه وحكمته وقدرته ورحمته فلو جمع الخلائق من الأولين والآخرين أهل السموات والأرضين لكان نسبة علمهم إلى علم الله تعالى أقل من نسبة نقطة يسيرة من ماء إلى بحر عظيم، ذلك بأن الله تعالى له الصفات العظيمة والواسعة، والكاملة الشاملة في كل شيء، كما قال تعالى: ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾، ومن ذلك صفة الكلام.

واعلم أن ذكر العدد قد يراد به التكثير استبعادا لوقوع الشيء وحدوثه ، بقطع النظر عن العدد المذكور فلا يكون له مفهوم، ومنه ما جاء في هذه الآية في قوله: ﴿ سبعة أبحر ﴾ فليس المعنى : أنه لو جيء بزيادة على السبعة لم تنفد ، لأنها مخلوقة ، وهي مهما بلغت من العدد فإنها محدودة ومتناهية ، ولا يمكن للمتناهي أن يحيط بغير المتناهي، ولهذا قال هنا: ﴿ ولو جئنا بمثله مددا ﴾، فهي نظير قوله تعالى : ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾، فقوله: ﴿ سبعين مرة ﴾ غير مراد به المقدار من العدد، بل هو من أسماء العدد التي تستعمل في معنى الكثرة، فليس معنى الآية: أنه لو استغفر لهم أكثر من سبعين مرة لغفر لهم ، لأن العدد هنا ذكر استبعاداً لحصول مغفرة الله لهم ، ولو تكرر استغفاره ﷺ. ولهذا قال النبي ﷺ: (لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت) رواه البخاري من حديث عمر رضي الله عنه.

واعلم - أيضا - أن كلمات الله - تعالى - نوعان: شرعية وهي ما تكلم بها، كالتوراة والإنجيل والقرآن، وكونية وهي ما قضى به وقدره كما في قوله تعالى: ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾.

وقد دلت الآية على إثبات صفة الكلام لله - تعالى - ، وأنه لم يزل - سبحانه - متكلما بما شاء ، متى شاء ، كما شاء ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة ، وسلف هذه الأمة ، لا خلاف بينهم في ذلك، والأدلة على ذلك متواترة ، فمن القرآن آيات كقوله تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ ، وقوله : ﴿ فلما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ ، وقوله: ﴿ منهم من كلم الله ﴾، وقوله: ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ ، وقوله : ﴿ وناديناه من جانب الطور ﴾ ، وقوله : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ ، وقوله: ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾ ، وقوله : ﴿ إذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ ، وقوله : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ﴾ ، والآيات في هذا المعنى كثيرة ، ومن السنة قوله ﷺ: (ما من عبد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان) متفق عليه، وقوله ﷺ: (يقول الله تعالى: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار ...) الحديث متفق عليه .

فالكلام صفة من صفاته جل وعلا ، وهو كذاته غير مخلوق ، ولا نعلم كيفيته ، إذ الصفات لها حكم الذات ، فنثبت الكلام لله من غير تكييف ولا تمثيل ، ولا تحريف ولا تعطيل ، فلا نكيف صفاته ، ولا نمثلها بشيء من مخلوقاته ، ولا نعطلها ونجحدها أو نحرفها ونغير ما دلت عليه من المعان ، لقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ فأثبت سبحانه لنفسه الأسماء والصفات بقوله : ﴿ وهو السميع البصير ﴾ ، ونفى أن يماثله شيء من خلقه بقوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، خلافا لأهل البدع الذين ينفون عن الله الصفات الثابتة في الكتاب والسنة ومنها صفة الكلام ، أو يحرفون الكلم عن مواضعه فيقولون : كلام الله مخلوق ، أو يقولون: ﴿ وكلم الله موسى ﴾ أي جرحه بمخالب الحكمة، أو يقرؤونها بنصب لفظ الجلالة؛ ليكون موسى هو المتكلم؛ وغفلوا عن قوله تعالى: ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربّه ﴾ فإن هذه الآية لا تحتمل تحريفهم هذا، ونحو ذلك من الأقوال الباطلة ، المخالفة للكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة . فكلام الله تعالى صفة ثابتة له - تعالى - بالكتاب والسنة وإجماع سلف هذه الأمة، والأدلة على ذلك كثيرة، بل ما من حرف من حروف القرآن الكريم إلا وهو دليل على إثبات صفة الكلام لله تعالى ، لأنه من كلام الله جل وعلا .

ثم قال تعالى : ﴿ قل ﴾ يا رسول الله لهؤلاء الكفار والمشركين ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ وعبد من عَبِيد الله، آكل كما تأكلون ، وأشرب كما تشربون ، وأمشي في الأسواق كما تمشون، فلست ربا، ولا إلها، ولا شريكا، بل ولا ملَكا، كما قال تعالى: ﴿ قل لا

أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾، ولكن الله تعالى مَنَّ عليَّ بالرسالة ، وأكرمني بالنبوة ، ولهذا قال : ﴿ يوحَى إلي ﴾ أي هذا هو الذي تميزت به عنكم ، وخُصِصت به دونكم ، وهو الرسالة والنبوة ، ونظيرها قوله تعالى : ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾.

وقال بعض أهل العلم: معنى الآية: قل يا محمد للمشركين: إنما أنا بشر مثلكم، فمن زعم منكم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإنني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به عما سألتم عنه من أخبار الماضين، كقصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، ونحو ذلك، ولهذا قال بعدها:

﴿ أنما إلهكم إله واحد ﴾ أي وربكم ومعبودكم إنما هو واحد لا شريك له ، ولا ند معه ، ولا سمي ولا كفو له ، وهو الله جل وعلا ، كما قال تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ ، وقال : ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ ، وقال : ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ، فإذا كان كذلك فأفردوه وحده بالعبادة والطاعة والخضوع، ولا تشركوا به شيئا ، ولهذا قال : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ أي يؤمل أن يلقى ربه تعالى ، ويراه سبحانه ، فليستعد لذلك بالإيمان الصادق ، والعمل الصالح ، كما قال تعالى: ﴿ فليعمل عملا صالحا ﴾ من واجب ومستحب ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ من الخلق ، مهما بلغت منزلته، أو علت درجته ، لا عبدا صالحا ، ولا نبيا مرسلا ، ولا ملكا مقربا ، فالكل عبد لله، لا يملك لنفسه ـ فضلا عن غيره ـ نفعا ولا ضرا، إلا أن يشاء الله، كما قال تعالى : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا ﴾ ، وقال : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ﴾ ، وقال : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ﴾ ، وقال: ﴿ قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾، والآيات في هذا المعنى كثيرة. و(الشرك) هو صرف العبادة أو شيء منها لغير الله جل وعلا ، كالصلاة لغير الله ، أو الذبح ، أو النذر ، أو الطواف لغير الله ، وكالرياء ، والحلف بغير الله ، وتعليق التمائم ، والحلقة والخيط ، وكقول : ما شاء الله وشئت ، ونحو ذلك.

وفي هذه الآية التحذير من الشرك بالله كله ، صغيره وكبيره ، ظاهره وباطنه، قال الله تعالى : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) رواه مسلم، والشرك محبط للعمل كما قال تعالى : ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ ، وقال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾.

وقد اختار شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن الشرك كله: كبيره وصغيره، جليه وخفيه لا يغفره الله ـ جل وعلا ـ بل لابد أن يعذب عليه فاعله، إذا لم يتب منه، لقوله تعالى: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فإن الشرك هنا عام ، لأن (أنْ) هنا مصدرية، تؤول وما بعدها بمصدر، هو نكرة في سياق النفي ،فيعم كل شرك، كبيرا كان أو صغيرا، إذ التقدير: (إن الله لا يغفر إشراكا به)، والنكرة في سياق النفي تعم، كما هو مقرر في الأصول.

وقد أرشد النبي ﷺ أمته إلى ما يستعينون به في التوقي من الشرك كله بهذا الدعاء حيث قال: (الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل، وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره، تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم) رواه الحكيم الترمذي (صحيح الجامع).

وقد دلت هذه الآية على رُكْنَي قبول العمل ، وهما الإخلاص (بأن يبتغي به وجه الله) ، والمتابعة (بأن يكون العمل موافقا لشرع الله، وذلك باتباع سنة رسول الله)، فالإخلاص في قوله: ﴿ ولا يشرك ﴾، والمتابعة في قوله: ﴿ فليعمل عملا صالحا ﴾.

فالذي يجمع بين الإخلاص لربه جل جلاله، والمتابعة لنبيه ﷺ، هو الذي ينال ما يرجوه ويطلبه، وأما من عداه فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه، والسعادة بنيل رضاه.

نسأل الله تعالى أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، موافقة لسنة نبيه الأمين، وأن يمن علينا بالقبول، والتوبة النصوح، إنه ـ تعالى ـ خير مسؤول، وبالإجابة جدير، والحمد لله رب العالمين .

تم تفسير (سورة الكهف) بفضل الله وتوفيقه .

(فصل في مجمل ما تضمنته هذه السورة من المعاني والفوائد ، والأحكام والمقاصد)

سورة الكهف من السور المكية التي تتناول أصول العقيدة الإسلامية، وتهدف إلى تقرير دعائم الإيمان: من الإيمان بالله، واليوم الآخر، ومنه الإيمان بالبعث والنشور، وهي إحدى سور خمس في القرآن الكريم، بدئت بـ ﴿ الحمد لله ﴾ وهي: (الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر)، كلها تبدأ بتمجيد الله جل وعلا وتقديسه، ووصفه بصفات الكمال، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء والجلال، فهو المحمود بذاته، الذي يحمده أهل أرضه وسمواته، وهو المحمود على عموم نعمه، وسائر آلائه، سميت (سورةَ الكهف) لما فيها من المعجزة الربانية في تلك القصة الغريبة، قصة (أصحاب الكهف).

❁ تبتدئ السورة الكريمة أولا بحمد الله تعالى، والثناء عليه، بأوصاف الكمال، ونعوت الجلال، فهو ـ سبحانه ـ الذي أنزل القرآن العظيم على نبيه الكريم، هدى وبشرى للمؤمنين، ونذيراً للعصاة والكافرين، بين يدي عذاب أليم.

❁ ثم تنتقل إلى بيان حقيقة الحياة الدنيا بالميزان الشرعي الدقيق، الذي لا وكَسَ فيه ولا شَطَطَ، فتبين أن كل ما على وجه الأرض من زينة وبهرج إنما جعل للاختبار والابتلاء ، ثم تكون نهايته إلى الزوال والفناء، فالحساب والجزاء، فإما إلى جنة، وإما إلى نار.

❁ وقد استخدمت السورة الكريمة ـ في سبيل تقرير أهدافها ـ أسلوب القصص، فذكرت جملة من القصص ، بدأت بقصة (أصحاب الكهف)، قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة. وهي قصة الفتية المؤمنين الذين وقفوا في وجه الملك الجبار الذي كان يدعو الناس إلى عبادة الأوثان، وقفوا معلنين إيمانهم بكل جرأة وصلابة، متحدين الكفر وأهله، لا يبالون بأذى ولا موت.

إنهم فتية آمنوا بربهم إيمانا صادقا، حتى خالطت بشاشته شغاف قلوبهم، فخرجوا من بلادهم فرارا بدينهم، بعد أن أعلنوا توحيدهم لله الواحد القهار، وتبرؤوا من الشرك وأهله، وهجروا الديار والأوطان، في سبيل العقيدة والإيمان، ولجئوا إلى غار واسع في الجبل، ومكثوا فيه نياما ثلاث مائة وتسع سنين، بدون طعام ولا شراب، ثم بعثهم الله تعالى بعد تلك المدة الطويلة.

❁ وقد تحدثت الآيات عن إكرام الله لهم بإنجائهم من بطش ذلك الطاغية الجبار، وعن إكرامهم وهم مختفون بالغار، بعد أن فروا بدينهم، ولجأوا إلى ربهم يدعونه أن ييسر لهم أمرهم، فما كان منه ـ جل وعلا ـ إلا أن استجاب دعاءهم، تحقيقا لقوله: ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾، وقوله: ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾، وقوله: ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾، فألقى عليهم النوم، وجعل الشمس تتنحى عنهم عند شروقها وغروبها؛ لئلا تؤذيهم بحرّها.

وقد كانت قصة (أصحاب الكهف) هذه برهانا ساطعا على إمكان البعث بعد الموت، والحياة بعد الفناء، فقد قررت إمكان وقوع البعث في الدنيا، بعد تلك الرقدة الطويلة التي تشبه الموت، والغرض منها إقامة البرهان الحسي القاطع على أن الله يحيي الموتى، وأنه يبعث من في القبور، بضرب مثل واقعي، قريب محسوس، وهو البعث من النوم ـ شقيق الموت ـ بعد مئات السنين.

❁ ومن قصة أصحاب الكهف ينتقل الحديث إلى (قصة موسى مع الخضر)، وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم، الذي لا يعرف التكبر ولا الغرور، فإن موسى ـ مع علو شأنه ـ لم تمنعه مكانته عن تحمل المشاق في سبيل العلم، دون نظر إلى مكانة من يريد التعلم منه، فموسى نبي الله وكليمه، والخضر ليس بنبي ـ عند كثير من العلماء ـ ولكنه ولي من أولياء الله الصالحين، ومع ذلك لم يتردد موسى عن قطع المسافات الشاسعة ليلتقي بالعبد الصالح، وقدم نفسه بتواضع وأدب جم، طالبا منه أن يأذن له في أن يتعلم منه، ثم كان من شأنهما ما قص علينا القرآن العزيز من روائع القصص: من قصة السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار، وكلها أخبار غيبية أَطْلَعَ الله عليها ذلك العبد الصالح، وفيها دروس وعظات وعبر.

❁ ثم تنتقل السورة الكريمة إلى (قصة ذي القرنين) وهي قصة العدل وإغاثة الضعيف اللهفان، قصة الملِك الذي مكن الله له في الأرض بتقواه وصلاحه، إلى أن بسط سلطانه على المعمورة، وملّكه مشارق الأرض ومغاربها، ليقيم فيها العدل والخير والصلاح، ويكون من شأنه أن يبني ذلك السد المتين المكين؛ ليحمي الناس من شر يأجوج ومأجوج، وحين يتم السد يَرُد الملِكُ الصالحُ الأمرَ لله تعالى، لا لقوته البشرية.

وكل هذه الأخبار العجيبة التي ذكرَتْها السورة الكريمة إنما وردت بقصد العبرة والعظة، وتذكر المؤمنين بسعة علم الله وسلطانه، وعجائب كونه، وأسرار ملكه.

وإلى جوار هذا القصص الممتع ـ ذي المغزى العميق ـ بعض مشاهد يوم القيامة، وبعض مشاهد الحياة التي تصور الأفكار الرئيسية لدعوة الإسلام، وكما استخدمت السورة في سبيل هدفها هذه القصص، استخدمت فيه أمثلة ثلاثة واقعية، بينت فيها أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والجاه والسلطان، ولا بعلو الإنسان، وإنما هو مرتبط بالعقيدة التي دعا إليها القرآن.

❁ أما المثل الأول: فهو مثل الغني المكاثر بماله ، المفتخر بعشيرته ، والفقير المعتز بإيمانه ، المتواضع لربه ، وذلك في قصة (صاحب الجنتين). وهي ـ أيضا ـ ترمز إلى موضوع الإيمان بالبعث والحساب والجزاء، وترسم نموذجين واضحين للنفوس البشرية، للنفس المؤمنة المعتزة بالله، والنفس الكافرة المعتزة بزينة الحياة، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس، فصاحب الجنتين نموذج للرجل الثري، الذي تذهله الثروة، وتبطره النعمة، وصاحبه نموذج للرجل المؤمن بربه، الذاكر لمولاه، يرى النعمة دليلا على وجوب شكر المنعم، لا على جحوده وعصيانه.

❁ وأما المثل الثاني: فهو مثل للحياة الدنيا، وما يلحقها من فناء وزوال، بعد تلك الزينة التي خدعت الكثيرين من الناس، حتى حملتهم على الكفر والعصيان.

❁ وأما المثل الثالث: فهو مثل التكبر والغرور مصوّرا في حادثة إبليس اللعين، وما أصابه من الطرد والحرمان؛ جزاء تكبره واستعلائه على أمر الله. وهكذا ترد القصص مقرونة بالأمثال.

❁ ثم تُختَم السورة بوجوب الإخلاص لله جل وعلا، والمتابعة لرسول الله ﷺ، والنهي عن الشرك كله، كما بدأت بذكر الوحي والتوحيد، ليتفق البدء مع الختام.

❁❁❁

تم التفسير بحمد الله تعالى

وفي الآية دليل على أن الشخص قد يكون منهيا عن استفتاء أحد في أمر دون آخر، فيستفتى فيما هو أهل له، بخلاف غيره، لأن الله لم ينه عن استفتائهم مطلقا، وإنما نهى عن استفتائهم في قصة أصحاب الكهف وما أشبهها ، حيث قال : ﴿ فلا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾.